سخريَّة قدر

جهاد زهري

سخريَّة قدر

رواية

دار الماهر للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى 2020

الإهداء

إلى زهري محمد العربي في قبره، إلى مطرفي برهان، وإلى كلّ من أَحبَّني يوما وانتظر هذا النَّبض بشوق ها أنا أزفّه بمحبَّة عالية.

ولم أعد أميزُ بين الناي وقلبي

كلاهما مثقوبٌ

ويفحُ الأنين!

صادق رحيم/ شاعر سوري

طعنته بعد أن أعمى هَذا القَدَر كلَّ شيء، هكذا ببساطة، في الحقيقة لم تبق لحظتها زاوية واحدة، كان بإمكاني تمييزه، بإمكانها أن تبصر حين أقدمت على ذلكَ، كان ظلاما دامسا، ظلاما تامًّا فقط ولا شيء آخر، كان يستحق أن يموت، أو على الأقلّ هكذا قدَّرت الأمور بتلكَ اللَّحظة الدَّاكنة، قد يكونُ تقديري للأمر خاطئا، ربَّما، لكنّي كنتُ راضيا جدًّا، راضيا بالقدر الذي يمكنني من خلاله أن أقهقهَ ولمدَّة طويلة، ثمَّ أمضي في طريقي وأشعل سيجارة وكأنَّ شيئا لم يكنْ، أنا الذي أحسب، بل إني شبه متأكّد أَنّي قتلت أحدهم قبل قليلٍ ...

حينَ بادرتُ بضربه لم تكن لي نيَّة في قتله في البداية لولا استفزازهُ المتواصلُ وأنا أمسكُ بهِ بينَ يديَّ اللَّتان لم أعد بإمكاني التّحكّم بهما، حاولت أن أمنعهُ عن الكلام، أمرته أن يصمتَ لكنَّه رفض أن يفعل ذلكَ، كانَ التقاطي لفاتح الأظرف سريعا جدا وطعني له بقلبه أسرع، وبوهلة انتهى كلَّ شيءٍ ليسقط وبشخير متواصل على الأرض على دهشة زميل آخر كان قد أتى لتوه حين سمع الصّراخَ، لم أركض وأنا أغادر المكان، لم أكن خائفا البتَّة، كانت خطواتي ثابتة،

كنت مبتسما، أحسست حينها أنّي تخلَّصت من ثقل كبير وُضع على كاهلي، راحة عجيبة تلكَ التي أحسستُ بها، كان كلّ من في غرفة العمليَّات والاتصالات يقف محدّقا إليَّ عند باب المكتبِ قبل أن أدفع مَن بطريقي منهم وأنا أمضي إلى الخارج، و تحتَ وطأة نظراتهم الخائفة، وصراخ بعض النّسوة الذي دوَّى داخلي لمدّة طويلة، إنّي بالكاد أتخلَّص منهُ...

كنتُ سأطرَدُ بالأحوال كلّها، ليست المرَّة الأولى التي يحدث لي هذا، لا أقصد أن أقتل أحدا ما، لكن أن أمكث بعمل أكبر من المدَّة التي سأشعر فيها بالضَّجر وغالبا ما كان ينتهي الأمر بلكم أحدهم والمغادرة دون رجعة، كما أنَّه ليس بالأمر الغريب كذلك، الغريب فعلا لو واصلت هناك لوقت أطول ممَّا مكثت به، وأن أواصل ذلك العمل السَّخيف، إنَّه سخيف فعلاَ، تمسكُ هاتفا لعينا وتواصلُ الاتصال بالزبائن ثقيلي الظلّ لتبيع لهم الدَّواء وغالبا ما يقطع أحدهم الاتصال بوجهكَ وأنت في قمَّة محاولات إقناعك لهُ بالعروض الممتازة التي تسطّرها الشركة، ويبدو أنَّه عليكَ الابتسام والتظاهر بالرضا طوال الوقتِ حتى وإن عنَّفك الزبون أو ربَّما

شتمك بطريقة مباشرة أو غيرها، أو قام بالسخريَّة منكَ، لا يجب عليكَ أن تتخذ من الأمر مسألة شخصيَّة، لابدَّ أن تكون محترفا وكل تلكَ القذارة التي نسمعها كلّ يوم من مديرة الفرع التجاري.

لم أحبّ وظيفتي تلكَ، كما لم أفعل مع أيَّ وظيفة أخرى، الأمر وما فيه أنَّه لابدّ لكَ من مصدر عيشٍ ، مصدر مال دائمٍ، وإلاَّ كيف سأشتري الكتب والسَّجائر، لا جَرَم إن كانت رديئة فالمهم أن أدخّن وأن أحرق كلّ ما يمكن إحراقهُ داخلي، كم من الأشياء المقيتة داخلنا تلكَ التي نحاولُ عبثا إحراقها ولا تحترق، بينما نحترق يوما بعدَ آخر كفراشات هشَّة اقتربت من وميض أدهشها في البداية ليقضي عليها إذا احتكَّت به ثمّ تتماهى إلى الأبد، لكنَّنا على عكس الفراشات لا نفعل، بل نبقى صامدين في مواجهة أنفسنا ثمَّ العالم الصَّامد كجدار يصعب اختراقهُ بل يستحيل فعل ذلكَ، وليتنا نتماهى، لكنَّنا لا نفعل.

شتمتُ الجميعَ قبل بلوغي بوابة الخروج، بصقت عليهمِ ، ثمَّ خرجت مزهوا منتشيا بهزيمتي، قلت في نفسي أنَّه من الجميلِ أن يكونَ المرء حرًّا، أخرجت علبة المهدئات من محفظتي، تناولت

حبَّتي" كيتيل" وسرتُ لا أرى أحدا إلَّايَ وقد اختلطت المشاعر داخلي وكأنّي أسقط في حفرة عميقة لا قرار لها، أخرجت لفافة تبغٍ، أشعلتها بسرعة وأنا أنظر إلى قطرة دمٍ على رأس حذائي، إنَّه دم الأحمق الذي طعنت قبل قليل، إنَّ الحريَّة تحتاج دمًا بالنهاية، إنَّها تحتاجُ ثورةً على كلّ شيءٍ، فكرت بالحانة، غير أني توقفت عن الشرب منذ زمنٍ، لذلكَ قصدتُ أوَّل مقهى بالطريقِ، ولجته، طلبتُ قهوةَ وانزويتُ بإحدى زواياه، أخرجتُ لفافة تبغ أخرى، إنَّها الحريَّة التي افتقدتها منذ زمنٍ، أنا لست حزينا ، وإن كنت، بل إنني سعيدٌ حدَّ أن باغتتني دمعة من تلكَ الأعماق التي طالما تجاهلتها، هل هناك من يتجاهل أعماقه فعلا؟ أنا فعلت ذلكَ ولفترة طويلة، صدّقوني، كل مضيّي قدما في هذه الحياة كان من منطلق تجاهلها، وإلا لم أكن لأواصل المسير، هذا المسير الطويل والطريق الحافل بالأشواك، إنَّها تلتصق بروحي حتى تثخنها جراحا، فأتوقَّف لوهلة لألعقها مثل أسدٍ، هكذا تخيَّلت نفسي وأنا أنزوي بركن مظلمٍ في المقهى الذي ولجتهُ، أسدٌ بركنٍ ما بالغابة الشَّاسعة يلعق جراحه بعدَ معركة حاسمة مع وحشٍ آخر، يهزمه ثمَّ يرتاحُ، أو محارب نزلَ عن جواده

ليستريح تحتَ ظلّ شجرة وبعد معركة طويلة كان قد قُتل كلّ الجنود الذينَ معه وأُسر الآخرون ولصدفة ما نجا منها وها هو الآن يمكث وحيدا علَّه يستردّ أنفاسه، لكنَّه لن يسترد أولئك الذينَ ضيَّعهم بينَ ضربات السيوف وتحت أقدام الخيول، الحرب لم تكن رحيمة بروحه، كما تفعل الآن الحياة معي، إنَّها لم تكن رحيمة لا بروحي ولا بكل أغنياتي ويتمي الفادح الذي يغتالني وأنا أنزوي هنا كالمحارب الذي نال منه التَّعب أو كالأسد الذي أثخنته الجراحُ بهذا العالم أقصد هذه الغابة الشاسعة الكبيرة...

وكأنَّني شاعر مجدَّدا، تنتابني رغبة ملحَّة في الكتابة، تنتابني لجج اللغة لتغرقني، لست متأكدا أنّي أتقن السّباحة جيّدا، لم أفعل هذا منذ مدَّة، أحتاج أن أكتب ولذلكَ وحين لم أجد قلما بحوزتي حاولت أن أقتحم صمت أحدهم طالبا منه قلما، كانت الورقة التي أخرجتها من جيبي كفيلة أن تلمّ شتات اللحظة وأنا أوقّع عليها ما استدركته حينها من مشاعر اليتم الحافل الذي ألمَّ بي كالطوفان، لكني لم أدخل أرض قصيدة كما توهَّمت، كتبتُ على أعلى الورقة كلمة أو كلمتين، لا أذكر تحديدا وتساءلتُ، لماذا فقط هنا وبهذه اللحظات المفعمة

بالأسى والجنون تأتي الكلمات، ولا تأتي حين نحسب أنها ستفعل ذلكَ، يأتي الشعر غالبا بعد أن نفقد شيئا ما، يأتي أحينا أيضا حين نفقد كل شيء ،إنَّه دليل الفقد والمشتاقين إلى أنفسهم كأوّل شيء، إنَّه دليل الوحيدين، وحدها الكلمات تحضنهم أو هكذا يشبَّه لهم، وبينما تحترق أرواحهم تضيء عزلتهم وتكتبهم هم الذين يحسبون أنَّهم يكتبون بقدرتهم، إنَّه عصيّ على الفهم كالموت، مباغت كسهم يلتقف القلب مباشرة ولا يتركه إلَّا وقد أودى بصاحبه، الكتابة هي الشفيع الوحيدُ، وهي الملجأ لمن لا ملجأ له، إنَّها تشبه الله كثيرا إذ تختار بعناية فائقة أنبياءها وأصحابها الذين تتنزَّل عليهم الكلمات من السَّماء أو من مكان آخر، ففي البدء في البدء، كانت الكلمة أليس هذا صحيحا؟ في البدء كلمة وفي النهايات الكئيبة أو الانتصارات المشبوهة كلمة، كل الكون كلمة، كتبت هذا وأرجعت القلم إلى صاحبه شاكرا، وواصلت اللحظة، وأيّ لحظة تلكَ التي أردت أن أواصل هطولها أنا المبلَّل بآلاف اللحظات...

تريدين الصّدق يا فطيمة، لستُ حزينا لأني طعنتهُ بقلبه، أبدا لست كذلكَ، كان يستحق ما فعلتُ به، كان بإمكاني أن أطعن العالم

كلَّه لأجلكِ ولن أبالي، تختلط داخلي الكثير من المشاعر، والمواجع يا فطيمة، ولا أظن أن الوقت سيسعفني لألتحق بك ورحت أضحك مرَّة، وأبكي أخرى، وتأكدت من جنوني التَّام تذكّرت أنّي لم أتناول أدويتي، لم أفعل ذلك منذ أسبوع، يزيد قليلا عنه ...ثمّ إنَّ التفرغَ لطلب المال من الثامنة حتَّى أواخر المساءات، يجعل من المرء عبدًا لهذا، يفقدُه إنسانيته، عقدَه، هواجسهُ، أسئلته التي ترهبهُ ويبحث عن إجاباتها، يفقدُه حواسَّه، حتَّى يندمج مع العاديِّ والروتينيِّ، ويصير مملَّا، إنَّها من أكبر الميتاتِ وأحقّها، ليس الميّت من دفن تحتَ التّراب حقا، لكنَّه من لا يملك الوقت لإنسانيته، وأسئلته العميقة، تلكَ التي تكوّنه دائما إنَّها الدَّليل على حياته مهما كانت صفتها، إنّ من لا أسئلة له لا حياة له ...

تكتسحُ غمامة سوداء سماء الوقت –وقتي–يجلس بالمقهى الكثير من الناس، الذينَ احتموا بسقفه من المطر الذي انهمر السَّاعة على أرض المدينة الجديدة بقسنطينة، هذه المدينة–قسنطينة– التي رغم حبي الكبير لها، إلَّا أنني أمقتها، ولم أعد أحبها إلا في قصائد العاشقين، عاشقيها، وروايات من كتبوا عنها بحبّ أو بغيره، لطالما

أردت مغادرتها إلى الأبَدِ، أنا الذي فشلت في اتخاذ قرارات كثيرةٍ كنت أجدني أفشل أيضا مع أوَّل محاولة للاقتناع بهذا الأمر، ربما لأن علاقاتي بها مرضيَّة أو ربما -أحيانا أقول- أنَّ من لم يسعه وطنه ومدينته، كيف له أن توسعه الدنيا وتحتضنه، تختلط دائما لديَّ الانتصارات والهزائم حتَّى أفقد معنى كلا منهما، ثمّ أمضي إلى أسئلتي فجأة، وفجأة أجدني كائنا مندهشا، حائرا أمام تلك المفاهيم التي يختلط فيها الانتصار بالخيبة، والحبّ بالمقت، والجدوى، جدوى كلّ شيء، باللاجدوى والهباء الكبير.

هل أنا خيبة كبيرة، أو هباء متَّسع على المدى؟

وإلى أي مدى يمكنني أن أمضي في خسائري أو انتصاراتي أو...!

ولدتُ بقلب قسنطينة، المستشفى الجامعي لها، هكذا أخبرني أبي يوما وأنا أسأله، ذلكَ اليومِ البارد من ديسمبر، كانت السماء غاضبة، والريح تعزف مواالها الأبدي، غير أني كنت سعيدا جدا-قال-، كنتَ بهذا الحجم مشيرا إلى ذراعه، وكنتُ أسعدَ كائنٍ بالوجودِ، وأنتَ تلتحف غطاءكَ الصغير الذي يلفك يومها بمهدك والذي أعدَّته

جدتك لك مسبقا، قام برفع الأذان مباشرة في أذنك، جدَّك الذي توفي بأيام بعد ذلك، وكنتَ تصرخُ إلى ذلكَ الحين، وترفس بقدميك الصغيرتين الهواء من حولكَ.

الآن أفهم لماذا كلَّما حاولت الانتحار، واستبقت الريح إلى أعالي المدينة وجسورها، أسمع صوت الأذان، فتتملكني قشعريرة جافَّة وبرودة سامَّة بجسدي، بعدها أتخلى نهائيا عن الفكرة، لابد أنَّ أبي الذي منحني الحياةَ، وأنَّ جدي قد لقنني إكسيرها الذي يحافظ عليها بعد ذلكَ، ولا أعرف حتما إن كان ذلكَ أمرا جميلا أم لعنة ما ..

ها أنا أخبرك يا فطيمة أنّي لا أعلم شيئا، لا شيء، ماهية الأمور وحقيقتها أو تقديرها هل هي موجودة فعلا أم أنَّها عدم؟، هل قمت فعلا بقتل أحدهم قبل قليل ؟، صدقيني لا أعلم، أنا حائر يا فطيمة، حائر جدا، هل تفهمين هذا؟

لازال المطر المنهمر على أرض المدينة الجديدة "علي منجلي"، يزداد قوة، ولازال المقهى يعج بالداخلين إليه والخارجين منه إلى الدّنيا، تتصاعد غمامات السجائر بطريقة فوضوية إلى السَّطح، وتتقافز الأحاديث إلى رأسي وأحاول فصلها عن بعضها، كمن

يحاول أكل وجبة كبيرة دفعة واحدةً حتّى لَيذهب طعمها، وتفقد لذَّتها، أفر وسط هذا الزحام البشري إلى سيجارة تارة، وزحام أفكاري تارة أخرى ....

لقد عملت بأماكن كثيرة، وفي اختصاصات مختلفة ،كان آخرها حارس أمنٍ بإحدى مؤسسات الاتصال بالمدينة، وكنتُ أقف بمكتب الاستقبال أرتدي بزَّة الحراسة الكريهة تلك، لم تكن تختلف برمزيتها عن الشريط الأحمر الذي فرضه هتلر خلال الحرب العالمية على اليهود بألمانيا، شاهدت ذلك بفلم نسيت عنوانه، احتقارا لهم، وتمييزا لهم عن باقي البشر الطبيعيين، كنت أرى ذلكَ في وجوه العاملين والعاملات إذ يمرون بجانبي، وحتَّى نظرات معظم الزبائن الذين طالما حملوا حقدا دفينا تجاه مصلحة الزبائن بهذه الشركة وذلك لما فيها من الخدمات الرديئة، وتجاوز لكل ما يمكن أن يتعلق بخدمة الزبون، والسهر على إرضائه، فقد كنت بالنسبة إليهم ذلك الرَّجل ضخم الجثَّة الذي يمنعهم من التواصل مع مدير المؤسسة أو رؤساء المصالح لأجل أن يفرغوا فيه جامَّ غضبهم أو إيصال شكوى إليه تخبره بسوء الخدمة أو انفصال الأنترنت منذ

أزيد من شهر دون سبب واضح ،إلى آخر ذلكَ مما يمكن أن يكونَ، لا أنكر أني فكرت أو تخيّلت أني أمسك أحدهم من عنقه حتى أخنقه، لكنني لم أتجرَّأ يوما أن أفعل ذلك، كانت خيالات، مجرد خيالات أكتشفها في نوبات غضبي إذ كانت تنتابني .

كنتُ أكرهُ العمل نهارا، وأستبشر بقدوم فترة مناوبتي الليلية، وكنت أدخلها مدججا بالكتب والروايات التي أحب، أختلي بها وبالليل، والسجائر والكتب، أحيانا آخذ معي قطعة "كيف" أبتسم لها، وتفعل الشيء نفسهُ، أحاول أن أنسى فراغي الذي يملأني تماما، وأملأه بتدخين الحشيش طوال الليل، قرأت للكثيرين هناكَ، مالك حداد وأحببت رصيف الزهور، لوليتا لواسيني الأعرج كانت مملة غالبا بتساؤلات تشبه الكوابيس لم أحب نهايتها ولا ذلك الفصل الذي يحكي عن الكوفية، ألهمتني كثيرا مائة عام من العزلة لماركيز، كانت أول عمل أقرأه له، كانت نهاية رجل شجاع هي التي أعدت قراءتها أكثر من مرة، حنا مينا ذلك الشَّامخ في الحقيقة ومع البحر في أعماله الخالد، كان رياض صالح الحسين الشاعر الذي كتب مبكرا ومات مبكرا ليترك دواوين قاتلة أثَّرت ليس بنصوصي فقط بل

بحياتي، بكل تلك السوداوية التي تحملها صرت بسيطا كالماء واضحا كطلقة مسدَّس، على حدّ قوله رغم غموضه الكبير بحياته وأعماله، أظنّ أنّني أشبهه جدا، أو هو الذي يشبهني.

خلال عامين متتاليين وجدتني أحاول الخربشة، ففي إحدى الصَّباحات وبعد خروجي من العمل وانتهاء مداومتي اللَّيليَّة وجدتني عند أوَّل مكتبة بالطريق أشتري دفترا، وقلما، ثم وعلى غير العادة ودونَ أن أنام وأرتاح من تعب الليلة الفائتة أفتح الدَّفتر، وشيء من النشوة لازال عالقا برأسي بسبب "كيف" ليلة البارحة، سعادة أخرى غريبة وأنا أحاول توقيع شيء ما بداخل الدفتر، لم أكن أعرف حينها أني أدخل أرضا، ستزيدُ يتمي الكبير يتما آخر بعده، أرضى بضرائب كبيرة تزيد عن التي أدفعها منذ لحظاتي الأولى بالحياة.

كنتُ أوقع جملا لا ترابط بينها، كأنَّها خواطر، رغم أنها لاتشبه الخواطر، إنَّها لحظات ما، أحيانا عشتها، وأحيانا لم أكن واثقا تماما بأني فعلت ذلكَ، ألم أخبرك يا فطيمة أني لست على ما يرام وأنَّه لا يمكنني فعلا التأكّد من صحّة ما يقع أو ما وقع إن كان فعلا قد

حدث أو لا، ربما كانت اللحظات قد عاشتني بدل أن أفعل في زمن لم أدركه بعدُ، أخلد بعد ذلكَ إلى النَّوم، وحينَ أستيقظ مساءً، أدخل مقهى الجودي ببلوزداد، كنتُ أحب تلك الزاوية التي تطل على الشارع الخرافي-بلوزداد-، وهو يستقطب الجميلات القادمات إليه من كل ناحية بالمدينة أو من خارجها، أجلس إلى قهوتي وحيدا، وأدخن سجائري، وأنا أحاول التوغل بعيدا في وجوه المارَّة الذين لا ينتبهون إليَّ إذ أرقبهم، وجوههم، ابتساماتهم، أحزانهم التي تخفيها عيونهم، وغير ذلكَ من المتع الخفية التي كنت ُ أجدها وأنا ألج عوالم الآخرين، وعالم بلوزداد، كنت أحاول الكتابة عنها كلما اختليتُ إلى نفسي، وشيئا فشيئا أصبح الدَّفتر لا يفارقني أحمله معي في حقيبة جلدية صغيرة أصبحت صديقي الوحيد بعد ذلك، وقلما، وربما رواية أو كتابا أدخل أرضه كلما سنحت الفرصة بذلكَ، ألج المقهى كعادتي بالمساء أخرج دفتري، أتفرس بوجوه المارَّة وأرسم ملامحهم كلمات، ملاحظات، حتَّى إذا جمعت الكثير عنها رسمتها في نصٍّ كنت غالبا ما أرميه بدرج ما في البيت ولا أعود إليه، وإن حدث وفعلت بعدَ زمنٍ انبهرت بما كتبت أو تقززت منه فرميته أو أحرقته،

وحينها أسارعُ إلى الولاعة، أحرق كلَّ شيءٍ، وأمضي إلى أسئلتي الكبيرة، والتي لازلت أطرحها وتكبر كلما فعلت ذلكَ وتتضخَّم....

أخبرتك يا فطيمة أنَّ ما لا أسئلة له لا وجود لهُ وإن ظنَّ ذلكَ!

لا شيء لا يستحق الكتابة في بلوزداد، هواؤه، شمسه، مطره، الذين يمكثون به هنا وهناك وفي حرم مقاهيه، أشجاره التي تكتسي خضرة الجنَّة إذا حل الرَّبيع، وبياضا خاشعا إذا سقط الثَّلج حتى تحسّ فجأة أنَّك تحب الله، هل يوجد رصيف بالعالم يشعرك بحبّك لله ودون سابق إنذار؟ رصيف بلوزداد يفعل ذلك ، الرَّصيف الإسفلتي، نعم، إني أحس بمتعة غريبة وأنا أخطو عليه الخطوة تلو الأخرى وكأني بجنَّة ما، كانت خطواتي يوما ما صغيرة هامشيَّة، وكنت أطير، كنت أحسب ذلك فعلا، الآن صارت تلك الخطوات ضخمة، وصرت ثابتا أكثر من أي وقت مضى، وأحس بثقلي اللاَّمتناهي يكاد يأخذني تحته، يكاد يغرقني ، كان كبيرا كالكوكب يوما ما، كالمجرات وأنا أختبئ بين زواياه وأشجاره التي تُتوّجه ملكا على الأرصفة بالمدينة وأنا ألعب "الغميضة" مع أبناء الحيّ، كان

كذلك، لكنَّه لم يصبح كما كانَ، وكنتُ أعودُ للمنزل متسخا بالكامل، تلومني أمي قبل أن تحمّمني، وفي اليوم الموالي أعدها أني لن أوسّخني وملابسي الصغيرة، لكنّي غالبا ما كنت أخلف الوعد، وأدخل تفاصيل الشارع بكل ما أوتيت من قوَّة بريئة، أكتشف به كلّ شيءٍ، أخبرها أني ذاهب إلى أبي بمقهى الجودي الذي كان يجلس فيه كل مساء ثمَّ أنسحب ببطء حتَّى لا يشعر بي، إلى أولاد الحيّ لنمضي في أحلامنا التي كانت كبيرة، أتساءل اليومَ وأنا أقفُ بالمكان ذاته، وبالمقهى ذاته عن أبي، أينَ صار اليومَ، وأينَ صارت أحلامي، تلكَ التي كانت ما أكبرها بيوم من الأيامِ، والآن لم تعد إلا سديما، وغيمة سوداء تحجب نور الشَّمس بربيع يومٍ كانَت قد أشرقت القلوب تجاهه ..

كان أبي رجلا جميل الطلعة، بهيا وسيما ، قويَّ الجسم، لا يفتأ المنزل يشرق أثناء بلوغ هامته التي تطل فجأة عليه، يحمل كيسا مليئا بالخضار التي أتى بها من الفيروندو ببلوزداد غالبا، واسمه الحقيقي سوق "بطّو عبد الله "،كان يناديه أبي هكذا، أو من سوق العصر، وأبدا كان يحمل كتابا بيده يغلفه بجريدة ما، وكنتُ أحبّ قدومهُ

والجري لمعانقته، إذ يرفعني عاليا، ثم يقبلني فأتحسَّس لحيته الشائكة، وأشتمّ رائحته التي لازالت عالقة في ذاكرتي، أخطف الكتاب منه أسرع في تقليب صفحاته أحاول أن أسأله عن معاني الكلمات، أنا الذي لم أفهم منها شيئا تلكَ الأيَّام ها هي الآن تحيطُ بي في غرفته التي لازالت على حالها، ها أنا الآن أدخلها وأفهم ما تعنيه تلكَ القصائدُ والرواياتُ التي قرأتها كلها، وربما أعدتُ بعضَها لأفهم اليومَ أنَّه كانَ رجلا موغلاً في اليتم، للأسف فإنَّ أمي لم تفهمه يوما هي التي فارقت المدرسة في سن مبكر واعتنقت المنزل وأحاطت به خبرا، ولابد أنَّها لم تقرأ كتابا واحدا بحياتها، إنَّ ما بينهما من أفكار كما بين المشرق والمغرب، والسماء والأرض، والنور والظلام، الآن أفهم صمته عنها، وحلمه بها، وعزلته التامة عنها وعن العالم.

تزوجها زواجا كلاسيكيا كانت تقول جدَّتي هذا دائما، لم تقل كلاسيكيًّا تماما، لكني من فعل بكل تأكيد، فما فهمته من الحكاية التي ترويها دائما أنَّه لم يرها، حتَّى دخل بها، كانت تروي هذه الأمور ناقمة على بنات اليوم وجيله، جيل منكوب كما كانت تقول، مثنية

على ما كان في الماضي السَّحيق، ماضيها الشَّامخ كما ترسمه دائما، كارهة لما آلت إليه الوضعية الآن، مضيفة كلمة النِّيَّة في كل ما تقول، "بكري كانت النيَّة " هذه جملتها المشهورة والتي تقولها في كل خطاباتها، وأحاديثها كلما قدمت عندنا إلى الشّقة.

تبتهج الدنيا إذا دخل أبي المنزل، وأيّما سعادة تلك التي كانت حين أراه يدخل من الباب، لكني لم أحب يوما دخوله في حالات سكره المتقدّم، وأحيانا لا يأتي أَبَدا، وكنت أعرف مكانهُ ،"السّيكوار" طبعا مع عمي السَّاسي، وبعض شلَّته الآخرين الذين لا عوائل لهم غالبا إلاَّ حانات الليلِ والبحر الذي كانوا يتحدثون عنه بفرح بالغ، وبلهفة العشاق إذ يذكرون محاسن عشيقاتهم، لكنَّه –غدَّار- هكذا أخبرني وهو يحتضن جذع الشجرة، يهذي من أثر السّكر، ويتقيَّأ كلَّ شيءٍ، اقتربت إليهِ آخذه إلى المنزل، لم تكن أمي تحبّ حالته تلكَ، وكانت تصرخ بوجهه، تؤنبه، لا يقول شيئا، سوى أنَّه يستلقي بكل ثيابه دون أن ينزع منها شيئا، على الكنبة، فأمي لن تسمح لهُ بالدخول إلى غرفة النوم بتلك الحالة المزرية كما تصفها، في تلكَ اللَّحظة يكبر حقد ما داخلي تجاهها، أخرج من

غرفتي الصغيرة بعد أن تخلد إلى فراشها، وأجلب غطاء لأغطيه بعدَ أنْ أنزع عنه حذاءه، وجواربه ومعطفَه الجلديّ الخشنَ، كان دوما يقول أنه يمنع عنه طعنات السكين فغالبا ما كانت تنشب معارك بالحانات التي يرتادها، وقد أنقذه معطفه الجلديّ في مرَّة، ولذلكَ هو وفيّ لهُ، إنَّه مدينٌ للمعطف بحياته، التي أصبحت من الحكايات التي ترافقني، لم يكن الحقد الوحيد تجاه أمي فقط في تلك اللحظة، فقد كان يكبر كل مرة أكثر حينَ أستمع إلى ما تقوله إلى جاراتها، واللائي كنَّ يقتسمن لذة اغتياب أزواجهن في غيابهم، وأكل لحومهم، كانت تذكره بسوء دائما، وحتَّى في حالات صحوه واهتمامه البالغ بها، لم تكن تبدي أيَّ اهتمام، ولم يكن يعجبني ذلكَ البتَّة، كان رجلا متسامحا لأبعد حد ممكنٍ، وكان يعلم مقدار ما تحمله من بغضٍ تجاهه، الأمر الذي انعكس على علاقتها معي، وتعاملها معي، والعكس هنا هو الصَّحيح.

لم أعرف الحنانَ إلا نادرا وهو ما كانت تقتضيه الفطرة فيها والغريزة الحيوانية، وليس بيدها حيلة لذلكَ، وبينما العكس تماما بالنسبة إلى أبي، فقد سقاني من الحنان والرعاية ما أستقوي به وحتى

اليوم على يتمي القاتل في غيابه، إني لأذكره حتى يُخيَّل إليَّ أني لا أذكر أحدا سواه، وفي حالات سكري المتأخرة، الهث باسمه وأبكي وأنا أتذكَّر ما تبقَّى منه بخزانته من ملابس، وكتبه التي بأي مكان بالمنزلِ ورائحته التي بدأت أفقدها بصحوي وألقاها فقط حين أسكر، حين أكون مرتميا على معاطفه الشّتائيَّة، وقمصانه الفخمة، وربطات عنقه التي صارت باهتة َاليوم أكثر من أيّ وقت مضى.

ايييييه يا أبي ..هل هناك في الدّنيا ما يعوّض رجلا أباه الذي لن يعود؟ !

لم يدرِ عمي السَّاسي وهو يطرق الباب بعد انتصاف الليلِ، حينَ خرجت أمي له كيف يخبرها أنَّه وببساطة غرق أبي، هو الذي خبر البحر جيّدا، لطالما أخبرني عنهُ، وهو يرمي بصيده الوافر في حوض الحمام، بعد كل رحلة صيد يخوضها، لم يعرف عمي الساسي، أقرب الأصدقاء إليه كيف يدخل هذه اللعنة على حياتنا وهو ينظر في عيني أمي ثمَّ يخفضهما إلى الأرض، سأعلم لاحقا أنَّ الأشياء ليست عادة كما تبدو.

-"البركة في راسك أختي زليخة"، قال عمي السّاسي يومها.

-"أخلاايا" واش صرا، ردَّت أمي بهلع.

سأكتشف لاحقا أي هلع هذا.

-فقدناه ...لن يعود الزبير بعد اليوم.

سقطت أمي أرضًا، وسقطت معها أحاول أن أفهم الأمر الذي جعلها بتلكَ الحالة، فجأة وجدتني مندهشا من هول ما لم أستطع فهمه، غير أنَّ الهباء الذي سقطت به لازال يعرّف عن نفسه حتى هذه اللحظة....

-"ازرب ما تبقاش تشوف معايا، جيب شوية ماء "

قال السَّاسي، يصرخ بوجهي، أنا الذي بقيت متسمّرا به، أسمع صراخه الذي بدا بعيدا يومها، يومها انتشر شلل مفاجئ بجسدي، لم أستطع استيعاب شيءٍ، لكنَّ الدموع تسارعت متدفقة من عينيَّ، أمي المرمية أمامي، وضياع مفاجئ أحسست بهِ، ولم أفق إلَّا وعمي السَّاسي يصب بعض الماء على وجهها، كان قد أسرع وأتى به من المطبخ، بعض نسوة العمارة كنَّ قد اجتمعنَ إثر صرختها تلكَ، والتي أيقظت الجميع، ونوَّمت فيَّ كل شيءٍ، وألقت بي بعيدا، إلى الهاوية ...وما أدراك ما هي، نار حامية ....

لازلت أتذكر كلَّ شيءٍ، كلما دخلت متأخرًا إلى المدينة وأزقتها ثملا بعدَ أن أغادر حانات المنطقة الصناعية التي باتت تعرفني أحسنَ مني، أتذكر كيف وضعوهُ بين النادباتِ، والنادبينَ، وكيف حملوه بعدها إلى المقبرة، وكنت أسير بينهم، الكل غارق بحزنه لا سيما أنا، وفي لحظة كاسحة ما، تذكرت ابتساماته الحانية، وابتسمت لها، وظننت أنه ملكٌ يُحمل على الأكتاف، رغم حقد أمي التي بدت حزينة أكثر مما توقعت، لو دام حزنها ....

غادر الجميع المقبرةَ إلَّاي وعمّي السَّاسي وبعض من المقربينَ لأبي، ثلاثة أو أربعة نفر، ومنهم الدكتور يوسف عزمي الذي لم يكن يتفق كثيرا مع السّاسي ولا أعرف لماذا، لا أذكر جيدا التفاصيل المغرقة، ما أذكرهُ أني بقيتُ متشنّجا لا أعلمُ شيئا، وفكرة أنَّ أبي غادر إلى الأبَد لم تقنعني بعد، كنتُ أنتظر قدومهُ من ناحية ما، لأسرع إليهِ، وألتصق برجلهِ، بينا يذهب في أحاديثه مع رفاقه، وكنتُ أفكر كيف ستتخلّص مني أمي، كما كانت تفعل بإرسالي إليه إلى المقهى، إلى من سأذهب، ومن سيعطيني تلكَ الفرنكات التي كنت أدسّها بفرح غامر بجيبي وأشتري بها حلوايَ، ومن سيغلف

معي كتبي إذا ما حلَّ موسم دراسيّ ما، ويلصق عليها قصاصات الاسم واللقب والمادَّة، كان يحب ذلكَ، بل كان أعظم شخص يفعل ذلكَ بنظري، يحدّثني عن أيام دراسته وكيف كانت صعبةَ، بائسة، وكيف انتصر بالأخير على كلّ الظروف، لكن ما من أحد أنصفه بعد نجاحاته تلكَ فلقد ظلَّ عامل البريدِ الذي لا يعرفه أحد، أنا الذي قرأت كتاباته التي كان يخفيها هنا وهناكَ، لأعرف شخصا آخر مختبئا تحتَ ذلكَ الجسد، شخصا عميقا، ووحيدًا، ومتشائما حدَّ الجمل التي كان يوقعها، كنتُ أرقبُه أحيانا وأنا أذهب إلى المرحاضِ ليلا، فأجده تحتَ مصباح المكتب، ولم أدر يومها ما يكتبهُ كان الغالب أنه يعمل، كما كان يخبرني دائما، لكنَّ الجمل التي تركها بعدَ رحيلهِ، قد عرَّفتني بهِ أكثرَ وأكثرَ، وروحه التي التصقت بروحي، لم تغادر، لكنَّها جعلت مني ما أكتبه، وأوقعه بالمكان ذاته، وعلى الطاولة نفسها، وعلى مطفأة سجائرهِ أطفئ غضبي وما أُحرقني به من لفافات التّبغ التي فاضت بها منفضة السَّجائر ....

لم تكن أمي حزينة كما ينبغي، عكس ما بدا في البداية، كنت صغيرا، صحيح هذا، لكنَّه كان بإمكاني أن أدرك ذلكَ جيدا، فحين

رحل الجميعُ، لم تحدثني بشيء، لم تحتضن يتمي المبكّر في غياب والدي الأبدي، أو غيابها، ولأوّل مرَّة، تسرع إلى الحمامِ وتتحف وجهها بزينة لم أعهدها عليها، وجسدها بتنّورة نومٍ لم ترتديها قبلَ اليومِ، وأقصدُ حينَ كانَ أبي حيًّا، ثمَّ ترتمي بعدَ ذلك على سرير نومهما الذي نادرا ما وجدت أبي مرتميا عليه، بعد أن ألبسته حلَّة جديدة، وبينما ترتسم ابتسامة خبث على وجهها، كنتُ أقف على عتبة باب غرفة النوم، أرقبها، لم تنتبه إليَّ في بادئ الأمر، وحين فعلت ذلكَ نهرتني بشدَّة ...

-اذهب، أليس لك دروس كي تراجعها أو تحفظها؟

كانت تقول ذلكَ بحقد بالغ، وتتمتم قائلة

-"وجه الهمّ، راح هم وبقالي همّ"

لكنني أبقى هناك متسمرا، كنت لازلت لم أقل كلمتي بعد ضمن كل ما حدث، ولم يكن بإمكاني قولها، لكني بدأت أودّ لو التهمها البحر، والموت بدلا عن أبي، وأحسست بطريقة مفجعة، الوضع الذي صرت إليه، وتملكني رعب كبير، كبير، التهمني كل هذه المدَّة

التي عشتها، وكبرت، وكبر معي الفراغ، واليتم، والوهم، وهذا النَّص الذي أكتب الآن...يا فطيمة.

إنَّني لا أنوي كتابة رواية أو شيء آخر، أبدا، لكني أحاول معالجة هذه الندوب الكبيرة التي لم تبرح روحي منذ تلكَ الحقبة التي أذكرها، تفاصيلها، جيدا، وأعيشها بكل ما أوتيت من عذابات الروح، والجسد، هذا الذي يقف الآن مختلا، لا يشعر بكونه، بتواجده .... لا يشعر بشيءٍ البتة.

لقد تسمَّرت بالمقهى لوقت طويل، وأصبح لابدَّ من المغادرة، مضيت صوبَ الباب ثمَّ ما لبثت أن تذكَّرت أنّي لم أعط صاحب المقهى ثمن قهوته، فعدت إليه مسرعا، وقبل أن أخرج تلك الفرنكات من جيبي باغتني متسوّل يبدو عليه من البرد والتعب ما حرَّك إشفاقي عليه، يطلب مني سيجارةً، أعطيته بضع سجائر من علبتي، ودفعت بدل القهوة اثنتين، ثمَّ دسست بيده خفية ورقة نقدية، ابتسم إثرها، وكنت أرى فيه قدري، قدري الذي جاء فجأة على صورة متسوّل يختبر إنسانيَّتي، وصبري، وكان ردي بهذا أني لم أفقدهما بعدُ. وإن كنت فقدت بعضا من عقلي كما يبدو...

كانت الأمطار قد توقفت عن الهطول، وتلاطمت بقايا أشعة شمس فارَّة من السَّماء على الإسفلت، لا تقي من البرد لكنها تكسر بعض قسوته بالأماكن التي تضرب بنعومة عليها، وكانت الحركة متزايدةً، إنَّه وقت الغذاء بالمنطقة الصناعية "علي منجلي"، يتوافد العاملون في الشركات والمؤسسات المختلفة هناكَ إلى المطاعم رغبة في ملء بطونهم التي تمكَّن الجوع منها، لم أكن أحس بالجوع حقا، لكن رغبة عميقة لسماع بعض الموسيقى ألحَّت عليَّ، أخرجت

هاتفي، ركّبت السماعات وسرت إلى المحطّة على موسيقى كنت قد حمّلتها في وقت مضى.

ركبت الحافلة وانزويت كعادتي، أنا المنزوي أبدا عن الحياة، ورحت أحدّق في الكون كيف يسير معاكسا لاتجاهي، إنّه دائما ما يفعلها، وليست مرّته الأولى، إنّه بعكسي تماما، على عكسي دائما، يعاكس قراراتي، أحلامي، أمنياتي، يبقيني حين أود الرحيلَ، ويعمل جاهدا على ترحيلي حين أريدُ البقاء، إني لا أستغرب منه هذا، ولن أفعل أبدا.

كانت ألحان عبد الوهاب تنخر نخرا بروحي، وتحيلني غيمة بكاء عالية، تحلّل كلّ التناقضات، وتعيد صياغتها مجدّدا، كلما علا العزف ارتفعتُ عاليا بالسماء، هناكَ حيث كل الخيبات تحتي، وما أصغر حجمها، وأنا ما أكبرني، وما أبعدها عني، وما أقربني إليها، أغمضت عينيَّ، وكدت أن أغفو على تلكَ النشوة النادرة، لولا صوت بائع التذاكر، صوته المزعج الذي أيقظني من غفلتي الجميلة عن العالم ...

"هيَّا لاقار لي هابط "

قطعت جسر سيدي راشد متوجها إلى بلوزداد، وعلى إثر زخَّات المطر التي انسابت لتنعش الروح، تحزنها بحنين، إنَّه شعور تعجز اللغة عن بلوغه، ولذلك راودتني رغبة في النبيذ والكتابة والحب

" أو ليست الكتابة ممارسة حبّ مع العدم الذي يحيط بنا، إننَّا لا ننبذ العدم رغم الحزن الذي فيه، ولا ننبذ الحزن كذلكَ، نحن الخبيثين نتلهف لتلك اللغة التي يشكّلها، ونحن في محاولة عابثة منا لنطلب المعنى الذي لن ندركه أبدا، وتلكَ هي اللذة العارمة "

تذكرتُ فطيمة حين كانت تقول هذا بتلك الليلة الوحيدة التي جمعتني بها والتي كنا نتسامر فيها حتى الساعة الأخيرة من الحبّ والاشتياق، المرأة التي احتوتني يوما، حين كنت مرميا هناكَ بأحد أزقَّة السويقة العتيقة، الخطرة ليلا، كنتُ يومها قد شربت كميات كبيرة من النبيذ مع رفاق لا أعرفهم، اللحظة التي جمعتني بهم كانت ملعونة إلى الحدَّ الكبير، فبعد أن ثملت، استغلّوا ذلكَ، طرحوني أرضا، وانهالوا عليَّ بالضرب بعد أن أخذوا كل ما احتوته جيوبي، وساعة أبي التي كنت ألبسها، الشكر لله أنها ليست الذكرى الوحيدة التي بقيت لي عنه، والشكر لله على فطيمة التي خرجت بالوقت

المناسب لتصرخ، ويفرّوا، ساعدتني على النهوض، أخذتني إلى منزلها ضمّدت جراحي التي لم تكن عميقة، لكنَّها وكلبؤة تلعق جراح أسد كان قد تشابك في معركة حياة مع أسد آخر راحت تفعل ذلك، وبحبّ، وكنت أرقب ذلك بدهشتي العارمة إذ لم أعامل مرَّة بحياتي بمثل هذا، أنا اليتيم منذ...منذ أبي....

-" أنت تاني واش دارهالك، مالقيت معمَّن تشرب، تشرب مع اولاد القحبة هادو؟"

كنت أحاول أن أفهمها أني لا أعرفهم، لكن الشَّمالة منعتني من الكلامِ لحظتها.

أخذت تصرخ بخوفٍ عليَّ رغم أنَّها لا تعرفني، وكنت أحب ذلكَ، وأرقبه، وأرجو المزيد منه، بصمتٍ، إذ لم تسمح الشمالة لي أن أتكلم، فجأة لاحت لي أمي في خيالاتي، وهي تشتم أبي وتلعنه بأشد اللعنات وبحقد الأرض في قلبها، حين كان يأتي ثملا إلى البيت، لم تهتم لحاله، أو لما دفعه إلى السّكر حتى بلوغه الحالة التي بلغ، لكنَّها تتركه مرميا على الأرض وقد سقط يتمتم بكلام غير مفهوم، وتغلق باب غرفتها، وتلعن السماء التي جمعتهما يوما، كان ذلك قبل أن

تحذّرني من أن أقترب منه، أو أساعده على النهوض، تقول إني غلطة حياتها، وكانت فطيمة المرأة العكس، المرأة التي اختلفت عن أمي في أوَّل مقارنة خاضتها معها، إنها الفائزة دون شكٍّ.

استيقظت صباحا، كانت التاسعة، وهذا ما أشارت إليه السَّاعة القديمة المثبتة على حائط الغرفة الضيِّقة، بجدرانها المهترئة الباهتة، إلى يمين الساعة قليلا عُلَّقت صورة لطفل يبكي بحزنٍ، تسقط دمعة على خدَّه ولا أحد يمكنه مسحها عنه، وعلى الجدار الذي التصق به سريري، أعلاه، صورة للكعبة، ولشيخ طاعن يرقبها من بعيد، يرفع يديه إلى السَّماء، وعلى النافذة الصغيرة، التي تشبهُ فتحة سجن، والمحاطة بشباك ذي ثقوب صغيرة، تدخل أصوات المارَّة، والبائعينَ، وصراخ الأطفال، وزقزقة الحسّون الذي ملأ الغرفة بغنائه، كانت الغرفة دافئة تماما، وانتبهت إلى المدفأة التي سبَّبت هذا الدفء والتي قابلتني بعد أن أرخت ببصري إلى أرضيَّة الغرفة التي لم تحوي بلاطا أو ما شابه ذلكَ، لكنَّها كانت من الإسمنت الأزرق، ووُضِعت إلى الأرضيَّة نصف زربيَّة مبتورة، وهناك في الزاوية، خزانة صغيرة على سطحها بعض الكتبِ، هذه التي كانت مرمية هنا

وهناك، مكدَّسة في جهات مختلفة من الغرفة، وصورة بالأبيض والأسود لشابة يافعة جميلة يبدو أنها روسيَّة أو شيء من هذا القبيل إنها غرفة صغيرة تشبه الزنزانة، لولا بعض معالم الحياة بها مما ذكرت آنفا.

كنتُ عاريًا تماما، إلَّا من شورت قصير داخلي ولحاف يستر نصف جسدي السفلي، بينما العلوي عاري تماماً، وفي تلكَ اللحظة دخلت فطيمة، على غفلة، سارعت في تغطية نفسي، كانت تحمل صينية صغيرةً وكان وجهها يحمرّ خجلا، وهي ترخي بصرها في الأرضِ، سارعت في التقاط قميصي، ارتديته على عجل، بقيت صامتا لم أنبس إلا بكلمات:

-المعذرة، أنا آسف، أنا من عليه أن يخجلَ

-لا، أبدا، اعتبر نفسكَ بمنزلكَ، لابد أنَّك كنت ثملا جدا البارحة، كنتَ في حال يرثى لها.

- للأسف الشَّديد، لولاكِ لربَّما كنت في عداد الموتى، أو ربَّما دخلت مصلحة الاستعجالات، أنا مدينُ لكِ جدا يا؟

- فطيمة، نادني فطيمة، الكل يناديني هكذا هناَ

-حسنا، شكرا لك، يا فطيمة، إنه اسم قسنطيني بامتياز- قلت

ضحكت، بخجل بادي، وانكشف سرٌّ عميق من أسرار الله الكبيرة التي تحف العالم، وتختبئ في أماكن لا ينتبه لها الغافلون، ورحت أنظر إليها ...

كانت بيضاء حليبية، يتهاوى شعرها اللَّيلكي المنسدل كشلال أسود على رقبتها ويصبو بطوله إلى نصف ظهرها، وبينما تسقط خصلات منه على وجهها تعيد ترتيبه بيدها البيضاء الناعمة بأظافر متطاولة، مطلية بلون وردي فاتح، رقبتها كانت تحوي قلادة ذهبية خفيفة تسير على صدرها حتى تختفي مع جيبه، وقد أحاطت يدها بسوار رقيق مثلها، وكعبها بخلخال، يقارب برقته سوار يدها، يتدلى منه شيء لم أحدد ماهيته، إنها المرة الأولى التي أرى امرأة تحيط كعبها بخلخال، كانت بسيطة، لا بل كانت أبسط من البساطة بقليل، وفاتنة، لا، بل كانت أفتن من الفتنة بكثير، واضحة حد الغموض، غامضة حد التجلّي.

-قالت: لابدَّ أنَّ الحليبَ قد بردَ، أسرع واشربه قبل أن يتجمَّد،

وضعت الصينيَّة بسرعة على الخزانة، أو نصف الخزانة في الزّاوية، وخرجَت بسرعة، ثمَّ عادت قدَّمت إليَّ الصينيَّة التي احتوت، كسرة ساخنة، لابدَّ أنَّها حضَّرتها قبل قليلٍ، وكوب حليبٍ، كانت صينيَّة بسيطة لكنَّها باذخة الحبِّ والعطاء، هذان اللذان لم أتقاطع معهما بحياتي ...

كانت أمي، لا تلتفتُ إلى إيقاظي صباحا، إلا نادرا، وكانت جدَّتي إذا أتت زائرة إلينا من يفعل ذلكَ، وظلَّت معنا بعدها، حتَّى ماتت وفي صمتٍ مهيب دفنَّاها، وفي صمت غادرت إلى مثواها الأخير، كانت هي من يحضر فطوري الصباحي، وتخبز كسرتها التي لم أنسَ طعمها، وتذكرته عند فطيمة، كانت بحنان الجدَّات، وعطف الأمهات، وخوف الأخوات على إخوانهنَّ الصغار، كانت جدَّتي تتمتم وهي تخبز كسرة الصباح، أو تحضَّر الفطائر، فطائرها الشَّهيَّة -"راح وليدي مسكين، وماهنَّاتوش اللفعة هاذي، وماهنَّاتش وليد وليدي مسكين"

هذه الأفعى هي أمي، أعرف هذا، كان عمري 12 سنة، وكنت أفهم كلَّ شيءِ، كنت مقبلا على امتحان شهادة التعليم الابتدائي،

كانت تراودني في أحلامي أفعى كبيرة برأس أمي الذي احتوى ماكياجا وسَّخ وجهها بالكامل، كانت مخيفة، الحدَّ الذي كنت أصرخ فيه ليلا، وأحيانا كنت أتبول بفراشي وملابسي، لكنَّ جدَّتي كانت تحتضنني حينها، وتبدّل لي الفراش والملابس، وتحمّمني صباحا قبل أن أذهب إلى المدرسة، وأحيانا كانت ترافقني.

جدَّتي مكثت معنا مباشرة بعدَ موتِ أبي، بأسابيع قليلة، رغم رفض أمي لذلكَ، لم أصادفهما يوما مجتمعتان على مائدة واحدةٍ، فبالنسبة لجدتي أنَّ أمي هي من قاد أبي إلى الموتِ، وبالنسبة لأمي فإنَّ جدَّتي هي التي ستحرمها حريَّتها التي ما انفكَّت قد حصلت عليها أخيرا بعد وفاة المرحوم أبي.

توفيت جدتي قبل اجتيازي امتحان الشهادة الابتدائيَّة بأيَّام، وكم حزنت لفقدانها، والفراغ الذي كبر أكثر بعدها، لكني نلت الشهادة رغم هذا، وكنت فتى متحديًّا، أتذكر أبي الذي طالما حفَّزني، وجدَّتي ومعاناتها معي، وما نلتها –الشهادة- إذ نلتها إلا إكراما لهما، أما أمي، فلم يهمّها الأمر أبدا، وحينَ زغردت الجارات بنجاح أبنائهن يومها، لم تزغرد هي، ولم تفرح، ولم تبدي أيَّما اهتمام لهذا...لكني كنت

سعيدا، ذهبت إلى المقبرة، أين دفنت جدّتي بالقرب من ابنها، حاملا معي شهادتي، كم بكيت يومها...

-أين ذهبتَ بعيدا؟ -قالت فطيمة.

-آسف أنا معكِ، إذا ماذا كنَّا نقول؟

-كنتُ أقول أنَّه لابدَّ أن تنتبه لنفسك، ثمَّ لم تخبرني باسمكَ.

في تلكَ اللحظة دخلت عجوز طاعنة في العمر، انحنى ظهرها، وكشفت عن لحمة لثتها حين تكلمت، إذ لم يبق فيها سوى سنٍّ واحدة تلوح من بعيدٍ كالسارية، وشعر منفوشٍ مبعثر، لم يعد لإصلاح خرابه إمكانية، وبمكياج مقرف، تشبه الجوكر كثيرا الذي في الأفلام، قطعت لحظتنا تلكَ.

-ايبه، أنت، فطيمة، هل ستظلين مع هذا الأحمق النهار كلَّه، هناك زبائن بالانتظار، هيَّا، اصرفيه بعيدا عن هنا، لن يكونَ الزعيم سعيدا بهذا، لقد اتصل وأظنه سيأتي بعد قليلٍ.

صمت كلانا عن الكلام.

عليكَ أن تغيّر ملابسكَ بسرعة وتغادر الآن، قالت فطيمة والخوف قد أكل ملامح وجهها الذي اصفر فجأةً، وأسرَعت بالخروج من الغرفةِ.

وبسرعة البرق قمت بارتداء ثيابي، ومباشرة وبعد أن أنهيت ربط خيوط جزمتي، عادت فطيمة، نظرتُ إليها، كان وجهها خاليا من أيّ قطرة دم.

-أنهيت؟

-نعم.

- هيَّا غادر بسرعة أرجوك، سعدت بالتعرف إليكَ.

-يبدو أنَّك خائفة جدا، هل بإمكاني تقديم المساعدة؟

-لا، غادر فحسب.

حسن، أخرجت قلما من معطفي، وطلبت منها ورقة، كتبت رقم هاتفي عليها.

هذا رقمي، اتصلي بأي وقت تحتاجينَ فيه إليَّ.

بلغتُ بلوزداد، هذا الشَّارع الذي كبرت بهِ، وكبر يتمي فيهِ، كنت أعتقد أنَّه العالم كلّهُ، وأَلَّا شيء غير بلوزداد، وبلوزداد اسمه الذي لا يناديه به أحد، الجميع ينادونه "سانجان" القديس جان، أبي من شرح لي هذا ذات يومٍ، هو من أخبرني الحقيقة التي احتفيت بها يومها أيَّما احتفاء ورحت أخبر أصدقائي بهذا، بينهم فوَّاز، أو كما كنَّا نناديه الزَّعيم، إذ كان أجرأنا في تقَدّم الحروب التي كنا نعلنها على الأحياء المجاورة، الكدية، الرود براهم، شارع عواطي مصطفى، أو حتَّى الأحياء البعيدةِ مثل حي مزيان-المنشار- أو بودراع صالح، أو غيرها من الأحياء، وكانت تحدث المشاجرات عادة بسبب كرة القدم، وكنَّا نقطع طريقهم إذ يمرّون بنا، ويقطعون طريقنا إذ نمر بهم، هكذا كنَّا صعاليكَ، غير أنّي لم أكن بصعلكة فوَّاز، كنت العقل، وكان الجسد المنفّذ، وقد كان في هذا تكامل عظيم، لم يخن أحدنا الآخر يوما، وحتى في الامتحانات المدرسيَّة، كنَّا حزبا واحدا، ضدَّ المعلمينَ، والزملاء، وحتَّى الأهل، وأذكر مرَّة أنَّه تركَ المنزل غضبا من عمه الذي ضربه ضربا مبرحا بسبب علاماته المتدنيَّة، فتركت المنزل أيضا، مساندة لهُ، وغضبة لغضبته،

ومؤازرة له، لم نظهر إلا بعد أيام، وكان الجميع يبحث عنا، ضربني أبي يومها حتى تألمت، لكنَّه صالحني بعد ذلك، وما فعل إلا لخوفه عليَّ.

-هل تعلم أنَّ الاسم الحقيقيَّ لـ "سان جان" هو بلوزداد، قلتُ

-من أخبركَ بهذا؟ قال فوَّاز.

-أبي، وقد أكَّد لي ذلكَ، وسان تعني القديس واسمه جان، أي القديس جان، وبلوزداد هو محمد بلوزداد شهيدُ الجزائر، توفيَّ بمرض السّل وقد ناضل ضدَّ الاستعمار الفرنسي ببسالة، حتى إنَّ أبي يملك صورة لهُ.

-أريد أن أراها، سأحضرها لكَ المرَّة القادمة، طبعا إن سمح لي أبي بذلكَ.

أخذ يفحصها، ويقول، سأكونُ شهيدا يوما، وأريد أن تسمَّى شوارع باسمي.

-لكن من ستحارب، فرنسا ليست موجودة اليوم، ولا معاركَ تحدث هذه الأيَّام؟

-إذن سنخلق المعركة، سنخلق حربا، ضدَّ الجميع، المهم أن نسقط شهداء، ويسمى شارع باسمينا.

كانت الفكرة تغويه، وكنت أضحك بشدَّة ً، واعتبرناها معلومة قيّمة، حتى أنَّ فوَّاز ذكرها للمعلم، هو الذي لم يأت بجديد إلى القسم إلاَّ الشجارات، فابتسم المعلم.

-صحيح؟ ومن أخبرك بهذا قال المعلّم مبتسما.

-أعلم، هناك عدة أمور أعلمها لكني لا أحب الحديث عنها فقط

ضحك المعلّم يومها، وأخبر جميع القسم بما أخبره به فوَّاز، وتظاهر أنه لم يعرف المعلومة إلاَّ وقد أخبره بها فوَّاز، وكنت مغتبطا بسري، فأنا صاحب المعلومة ومصدرها الرئيسيّ...

كانت أيَّاما جميلة، الآن صار بلوزداد، لا يعني سوى زوايا من الذاكرة المتعبة، هذا الشارع باسمين، اسم قديس وشهيد، يجعل مني كلاهما أحيانا، أنا القديس إذا ما ثملت، أتذكر الله والمحرومين والجائعين واليتامى، وإذا دخلت أرض روحي صرت شهيدا، أسقط في أوَّل مواجهة لي مع العدم وهذا البياضِ.

بلوزداد، وكنا نغني، ونهتف، ونصرخ حتَّى التعب، توسخنا الأرصفة، أرصفته، وتعلينا أشجاره إذ نتسلَّقها ونرمي المارين بحَب الشّجر هناكَ، ونختفي بين أغصانه، أو نهرب إذا ما عُثر علينا، وتتهاطل علينا اللَّعنات ونخاف أن يُكشف أمرنا فيضربنا آباؤنا أو أمَّهاتنا.

بعد موت أبي وجدَّتي بعدهُ وانتقالي إلى المتوسّطة، أصبحت لا أطيق المنزل، ولا أمكث فيه إلا ليلا حين يأتي وقت النومِ، وكنَّا أنا وفوَّاز الذي تربيه جدَّته وأعمامه إذ كان لا يقل يتما عني، نمضي الوقت مع بعضٍ، ونتقاسم الهموم والأحزان، لم يكن يحب أعمامه، وكان عادة ما يُضربُ بشدَّة، ويريني مناطق من جسده قد تحوَّل لونها إلى البنفسجي من أثر الضرب المبرح الذي تلقاهُ، كنَّا لا نبيت في المنزل أحيانا، ونختار "السيكوار" وهو بستان صغير كانت فيه بقعة للسكارى والمدمنينَ، الذين كانوا يتهجَّمون علينا أحيانا وكنَّا نهرب بهلع وخوفٍ، لكنّ لم يتمكن أحد من إيذائنا إلاَّ نادرا جدا، إنَّه المكان ذاته الذي كان يشمل فيه أبي .

عرفنا الليل باكرا، عرفناه بسكّيريه، والثَّملين، والمدمنينَ الذين كانوا يأتون هناكَ، وكنَّا نلتقط أحيانا ما تبقى من شرابهم، لنثمل به، وما أكثر ما دخلت المنزل ليلا ثملا، لكنها –أمي—لم تكتشف، حتى أخبرها الجيران بذلكَ، لم تعلّق ولم تنبس ببنت شفة، كان كل همّها طبخ الطعام، وأحيانا تشتري لي الملابس في العيد أو في بعض المناسبات، كأنَّها تحاول تبرير شيء أمام الله، أو أنَّ بقايا ضميرٍ لازالت عالقة، أو تأخرت في المغادرة من إنسانها، كانت دائمة لعن اليوم الذي أنجبتني فيه، وأحيانا تضربني كما يفعل الجلاد بضحيَّته، تدمي أنفي، وتترك علامات على جسدي، ثمَّ تخر باكية هي الأخرى فضميرها لم يرحمها أبدا، وكنت أعلم رغم صغر سني يومها أنَّها كانت تخفي الكثير مما سأعرفه لاحقا.

كان حقدي عليها كبيرا، خاصَّة عند خروجي من المتوسّطة، وحين أجد الأمهات قد جئن لاحتضان أبنائهم وبناتهم، لم يكن أحد بانتظاري، كذلكَ فوَّاز، بعد موت جدَّته والتي كانت تعود بنا كلينا، وتنصحنا بالدراسة والبعد عن الشجارات التي كنت غالبا من أبدؤها ويتمّها فوَّاز، إني لأذكره اليومَ ولا علم لي بمكانه، فبعد أن

انتقل إلى واد الحدّ لم أسمع عنه خبرا واحدا، آخر مرَّة سمعت أنَّه بالسجن، في قضيَّة مخدّرات، وما أكثر ما ساءني الخبر رغم أني لم أحاول زيارته، فقد انقطعت أخبارنا عن بعض منذ سنوات عديدة، ولم أكن متأكدا إن كانت ستعود الصداقة كما كانت يومها.

هكذا هي الأقدار، أراد أن يكون شهيدا كبلوزداد، لكنَّه صار مجرما، لم يكن يحلم بهذا بكل تأكيد، لكنَّ المرسوم منذ القديم قد رُسم ولا مجال لتغييره، ولا لتبديل معالمه، إني وحينَ أختلي بي في لحظات ما، أحاول أن أسأل الله، لماذا كلّ هذا، لماذا يعيش البعض في أفراح دائمة ونجاحات متواصلة، ودعم لا منتهي، من الأهل، الأحبَّة، وحتى منكَ يا الله ..بينما نعيش المأساة منذ نعومة حسرتنا.

كنت أطرح أسئلتي بحرقة بالغة، وأمضي فيها حتى أني أخاف أن أكره الله، فأستغفر وأعود إلى رشدي، ولطالما صلَّيت لي ولأبي، ولجدَّتي بأن يرحمنا الله جميعا، وحتَّى أمي حاولت أن أفعل ذلكَ لها، لكنّي لم أستطع ..

كنت أسأله، لماذا أستحق كلَّ هذه المعاناة، هل فعلت شيئا سيّئا في عالم آخر لم أدركه، أم أنَّها اختبارات أحاول أن أجتاز ما تبقى منها

يا الله، كنت أحيانا أنكر وجودهُ لأيَّام، ثمَّ وحينَ ثمالتي أتذكره وأبكي، إذ لم يكن ملجأ لي منه سواهُ، وبقيت في شكي، ويقيني، حتى صرت لا ألتفت إلى أسئلتي كثيرا، أنا البائس مهما حاولتُ، ومهما سأحاول، وإنَّ الفراغ والهباء الكبيرين بروحي يتضخَّمان، وأتقزَّم ولهذا أحاول الكتابة، علّي أن أجد بعض الحقيقة الغائبة، أو على الأقل قبل اندثاري إلى الأبدِ ..

الحياة ليست عادلةً أبدا، إنَّها كالبحر، تعطي هذه الخيرات، وتحرم هذا، هما اللذان قدَّما السَّبب نفسه، وربما كانا على السفينة نفسها، وربَّما تبادلا الصنارة نفسها حتى إذا صاد بها الأول منحه البحر، وإذا استعملها الثاني وجاء دوره، حرمه من أصغر الأسماك وأحقرها، هكذا كنت أنصت إلى أبي، حين يتكلم عن الحياة، التي يربطها بالبحر دائما، وكم تمنيت أنَّه الآن بجانبي، أروم البحر معه، وأقتبس من حكمته التي لم أدركها يومها جيّدا ...

دخلت الشقة التي كانت تقع على مستوى الطابق الرابع من العمارة التي تطل على بلوزداد وعلى "لاريبانجي" على حد سواء، ويمكن الدخول إليها من الجهتين، من أي شارع أشاء، دخلت، نزعت معطفي، كانت المدفأة مشتعلة، وكان المنزل دافئا، لكنَّها وحدها الروح من أصيبت ببرد الذكريات، هذه التي تشكَّلت وحشا يريدُ تدميري، وحشا كبر معي، وترعرع بأرجاء كياني، والآن يحاول القضاء عليَّ، يريد أن يحرقني وعالمي على حدٍّ سواء.

فكرت بأخذ حمامٍ، ولذلك جهزته كما ينبغي، واستلقيت على حوض الاستحمام السَّاخن، أحاول أن أسترجعَ ما كان منّي في يومي، أسترجع كيف حصل الشجار، وكيف طعنت ذلك اللعين، ولم أكن نادما، بل كنت حائرا، والآن أنا بدون عمل، مفلس إلاَّ لما يكفي لمواصلة شهر من الأكل والشرب، وربَّما بعض النبيذ الذي كنت قد توقفت عنه منذ فترةٍ ، لكنَّ مغادرة فطيمة ستعيدني إليه بكل تأكيد، كان عملي الذي ما أحببتهُ يوما، يفرض عليَّ أن أضع سماعات الأذن طوال النَّهار، وأن أبيعَ أكبر قدر من الأدوية، للصيادلة، الذين كنتُ أجهد جدا في إقناعهم بالعمل مع الشركة،

في البداية بقيت في المخزن كمتربّص لأحفظ أسماء الأدوية ومستحضرات التجميل الطبيَّة، وبعض الأمور المتعلقة بالفوترة، والبيع، إلى ذلك من الأمور، ولم أكن أدرك من الأدوية إلاَّ مضادَّات الكآبة والتي أدمنت عليها منذ زمن طويلٍ، إذ لديَّ زيارة إلى طبيب الأمراض العقلية والنفسية كلَّ ثلاثة أشهر، ولم أكن أقدر على مواصلة الحياة أو الخروج من المنزل من غير أن أتناولها لاسيما التي تتعلَّق بحالات الهلع المفاجئ، والفوبيا من كلّ شيءٍ، نعم، لديَّ فوبيا من الألم، مني، من الأماكن المنفتحة، المنغلقة، من كل شيءٍ، أنا كومة فوبيا تتمشَّى على الأرض بكل بساطة.

كنتُ أدخل المكتب صباحا، أحمل بيدي فنجان قهوتي، أجلس إلى الحاسوب أدخل برنامج البيعِ، وأتصل بزبائني، أقصد زبائن المؤسسة الذين جلبتهم، وكان راتبي مرتبطا برقم الأعمال الشهري الذي أدخله في صندوق المؤسسة، بنسب مئويَّة متفاوتة، وهناك أحيانا بعض الامتيازات التي أحصل عليها من بيع تلك الأدوية التي اقترب تاريخ انتهاء صلاحيتها، كانت هناك تلك الأيام التي أبيع فيها بكميات كبيرة، كانت محفّزة، وأيام أخرى، لم أكن أبيع

شيئا، بل كنت ألعن الفراغ الذي يصيبني حينها، وكانت تنخفض معنوياتي إلى الحضيض، فأخرج رواية من حقيبتي الجلدية الصغيرة، وأقرأها خفيةَ، أقضي يومي عليها، وعلى تلكَ السَّجائر التي أدخنها من النافذة، إذ كان التدخين ممنوعا في أوقات العمل، ولا يجب أن ينزع البائع –أنا–السَّمَّاعات من أذنيهِ، كانت الكاميرات بكل مكانٍ، إنَّ الأمر أشبه برواية أورويل 1984 والتي قرأتها غير بعيد من دخولي إلى العمل، وكنت المتمرّد الوحيد على هذا النظام الاستعباديِّ، كنت خارقا للكاميرات، وحفظت منذ اليوم الأوَّل الزوايا المعتمة التي لا تلحقها ولا يمكن لمدير المؤسسة و للمراقبينَ بلوغها، لولا بعض الخائنين الذين ينقلون كل شيء لاحقا لربهم، أقصد ربَّ العمل، ومنهم الحقير الذي طعنت، وبذلك أصبحت مستهدفا من قبل المدير، وأولئك الذين يقتاتون من نقل الكلام، بكل سعادة يفعلون ذلكَ، دون مقابلٍ، إنهم الخائنون، الذين يرمون في النهاية إلى مزبلة التاريخ.

لم أكن أحبهم، كنت دائم الحرب معهم، وكنت مستهدفا منهم أينما حللت وارتحلت، "التَّابعة" كما تقول فطيمة، "ولاد القحبة

كامل قحاب "، كنت أضحك حين تقول لي هذا، وكان يعجبني غضبها، إنَّها تزداد جمالا كلما غضبت، أحيانا أعمل على ذلكَ، لأكتشف سحرا آخر غير سحرها في سائر الوقت وغالبهِ، ورغم أنها لم تجمعنا سوى لحظات أنا وهي إلا أني أعرف عنها كل هذا العمق، واستطعت من حبي أن أغوص فيه.

لم أكن اليومَ على عادتي، لم أتناول أدويتي كما يجب، لم أفعل ذلكَ منذ مدَّةٍ، في الغالب ينتحر البشر برمي أنفسهم من الأماكن العالية، حاولت ذلكَ مرارَ وتكراراَ، لكنّي فشلتُ بشدّةٍ، ورغم أنَّ الهاوية تستهويني كثيرا، وتغري روحي بأن تنضمَّ إليهاَ، إلَّا أنَّني لن أخفي أنَّها كانت تخيفني، فعلتُ ذلكَ عدَّة مرَّات، اتجهت إلى جسور المدينة، هي وحدها من يعلم أني فاشل وجدًّا، تعلمُ جيّدا مقدار الخيبات التي ألقيتها من هناكَ، وأكبر خيبة أنا —لم أفعل-لم أكن جريئا أمامها يوما، اسألوها، ستخبركم بذلكَ حتما ...

كانت أوَّل محاولة لي بالانتحار حينَ كنتُ في 18 من عمري، أو 17، لا أذكر تحديدا، وبعدَ أن فاجأني مغص مفاجئ، رجعت إلى المنزلِ مبكّرًا، هل تظنون أنَّ الأمر هيّن لهذه الدرجة، لا تستسهلوا

أبدا الطريقة التي أحاول إخباركم فيها بذلك، إنَّها لا تختلف كثيرا عن الانتحار، لكنَّه انتحار من نوع آخر، إذ ألقي بنفسي أمام التاريخ، وما أقسى الارتطام بقعره، وما أصعب ذلكَ الصَّوت الذي يختفي فجأة، هكذا، من دون صدى ومن دون شيءٍ...

سأعود بالأحداث قبل ذلكَ بأشهر، وبعدَ أن عثرت على بعض الأدوية بأحد أدراجِ خزانة غرفة النوم الخاصَّة بأمي، كان ذلكَ بعدَ 6 سنوات تقريبا من وفات أبي ومغادرته إلى الأبدِ، لم أكن أعلم أنها أدوية لمنع الحملِ، بالأصل كنتُ أبحث عن شيء ما نسيت ماهيته، قد أنستني الصَّدمة كلّ شيءٍ، بعد أن فتحت العلبة، وقرأت ماهية الدَّواء، وأغراض استعماله، وكانت يومها الصَّعقة إذ وجدته دواء لمنع الحملِ، التاريخ بالعلبة ليس قديما، والعلبة تقول ذلكَ قبله، فالنَّاقص منهاَ حبتان لا أكثر ،إنَّها حديثة ،ترى ماذا يفعل دواء منع الحمل بخزانتها –أمي-، لم أشأ أن أفكر كثيرًا، خرجت يومَها ورحتُ أمشي أمشي، ولا أعلم مستقرًّا لي، وبدا لي العالم قاحلاً، كنت أرقب الأمهات اللائي يحملن أولادهنَّ، أو الأزواج الذينَ يشبكون أيادي بعض، أو حتى العشاق الذين يفعلون ذلكَ، كنت

حاقدا على الجميع فجأة، كانت تلكَ أوَّل لقاءاتي مع الجسر الكبير الذي يقطع جهتي قسنطينة، وقفت أمامه أتأمَّل، كانت نوايا الانتحار باديةً، لكنّي بقيت أفكر في كلّ شيءٍ وأعيد ما أذكره جيّدًا من حياتي، علّي أصطدم بفرحة قديمة، وكنت غالبا ما أصطدم بابتسامات أبي، يحضنني، أحضنهُ ثمَّ جدَّتي التي رحلت في صمتٍ، حتَّى أني لم ألاحظ ذلك، كان اليتم يأكل كلَّ شيءٍ، حتَّى ذلك الحزن الإنساني يذهب بعيدا في معدته، يهضمه، ثمَّ يخرجه في شكلي، نفسي، روحي، هذه التناقضات الكبيرة التي أقف أمامها، ينظر الواحد فينا إلى الآخر، ويتهمه بأنَّه السبب، وبينما يحدث هذا، يغتالني السؤالُ

ماذا يفعل دواء منع الحمل في درج خزانة غرفة النَّوم.

هل......؟

بدأت الظنون تغتالني، وتشدّ أذني.

كان أبي يستمع إلى هذه الأغنية، ويدخّن سيجارته وينفث عاليا بالسماء.

لا تكذبي إني رأيتكما معا.

فدعي البكاء فقد كرهت الأدمعا.

وفجأة، ظننت أنَّ أبي لم يكن يستمع إلى هذه الأغنية عبثا، هو الحكيم الذي يقصدُ كل شيء يفعله.

"إنَّها لا نار بلا دخان، ولا دخان بلا نار، عليكَ أن تفقه هذا جيدا يا ولدي، لكل سبب مسبب ما، وحتَّى أذواقنا في اللبس، والموسيقى، والحياة عموما لابدَّ أنَّ لها مسببات عميقة قد أدت بنا إلى هذه الحقيقة، هذه الحياة"، قرأت له هذه الجملة مكتوبة بقلم رصاص على صفحة كتاب ما لا أذكره، الناقص مما أخبرني به، أنَّه حتى أذواقنا بالنبيذ لها أسبابها الخاصة أيضا، إنَّ لمرارته ومحاولتنا استمالتها، لهي في الواقع تحدي للحياة، إنَّه كالحياة، مرّ، يرضينا لحظة، ويشقينا لحظات، تماما كما تفعل هذه الحياة

وقفت ليس مرة على كلامه، إنها كالنبيذ هذه الحياة مرَّة ولذلك نشربها على مهل، ويسقينا الذين نظنهم أحبَّة لنا حتَّى إذا ما ثملنا رموا بنا إلى المجهول.

فشلت يا فطيمة مرات أمام الهاوية، وارتعدت قدماي أمامها، وجبنت، ولم أرمي بجسدي من هناكَ، وقد حزَّ بقلبي ذلك، إنَّك تحزن أحيانا لأنَّ دورك بالموت الذي تطلبه لم يأت بعدُ.

كانت الظنون أكبر من أن أقف باهتا أمام هذا الذي لا أعلم ماهيته حتَّى الآن، عدت أدراجي إلى البيتِ حاولت أن أبحث في كل مكان عن أدلَّة لهذه التهمة التي لا أودّ التفكير بها، اغتنمت فترة غيابها عن البيتِ لأبحث في كلِّ مكانٍ لكني لم أعثر على شيءٍ يذكر، حاولت أن أرجع كلَّ شيءٍ إلى مكانهِ حتى لا تنتبه أمي لحظة عودتها، طالت غيبتها هذه المرة أصبحت نادرا ما تدخل البيتَ، وبدأ الشَّك ينحرني ويأخذ بي مآخذ الجنون، وتذكرت كم من المرَّات لم تبِت بالمنزل، وكانت تدخل فجرا، قبل أن أكتشف أمر الدواء بالدرج، لم أكن أبالي، وكانت ظنوني أنها عندَ أخوالي الذينَ لم يسألوا عني يوما ولم أفعل، إنَّهم حتَّى لم يحضروا جنازة أبي، لكن بعد اكتشافي، وشكوكي الكبيرة بدأت أسألها، وبدأت تتضايق بشدَّة ..

"وما دخلك، كبرت ووليت راجل وأصبحت تتدخل في أموري، هل نسيت أني أمّك، أنا المسؤولة عنكَ ولستَ أنت، هل ستحرمني من زيارة أهلي، أنت رجل الآن، تصرَّف كرجل، لست دائمة لكَ" قالت حين واجهتها.

كنت قد تأكَّدت أنها لا تذهب عند أخوالي، ولا خالاتي، ولا إلى أحد من العائلة.

-لقد بحثت عنك عند الجميع، وسألتهم جميعا، إنَّك تكذبين، أين تبيتين حينَ لا تبيتين بالمنزل، عندَ من؟ قلت.

-لم يترك لنا والدك الملعون شيئا لنقتات عليه، عليك أن تكونَ حامدا لي، وتشكرني، تقبّل قدميَّ، لولايَ لما كان بإمكانك شراء هذا الحذاء الغالي الذي تلبسهُ، وهذه الجاكيت التي تحميك من البرد، لولاي لما أكلتَ، ولبتَّ جوعا، هل تظنُّ أنَّ والدك لا رحمه الله تركَ لنا شيئا، نحنُ على الحديدة أيَّها الغبيُّ.

-لا تذكري والدي بهذه الطريقة، وإن كان الأمر يتعلَّق بالمال سأتركُ الدراسة، وأعملُ، ولا داعي لهذا العمل الذي تبيتين فيه خارجا، قلت حانقا متذمرا.

-"باباك هم، وأنت همّ كيما باباك "

وأخذت تبكي بهستيريا، وتصرخ وتعيد الكلمة نفسها.

-"باباك هم وأنت همّ كيما باباك"

أنا همّ، وأبي كان همًّا، وأنت وحدكِ الضَّحيَّةُ بهذا كلّه، كنت أقول داخلي، ولم أشر أبدا إلى علبة دواء منع الحمل التي وجدتها داخل أدراج الخزانة، لم أقو على ذلكَ، ليس سهلا أن تدخل مثل هذه المواضيع، ومع من؟، مع تلكَ التي أنجبتك، ورغم ما حرمتني منهُ من حنانٍ إلَّا أنَّ كلامها كان صادقا فلولاها، لكنت عاريا الآنَ، أو مشرَّدًا، ولا أعرف حتما من ألومُ، أأبي الذي ذهب إلى الأبد ولم يترك شيئا، أم ألومها لأنَّها حرمتني حنانَ الأمّ بسبب أنانيَّتها، وكرهها الدَّائم لأبي وتقديسها لنفسها، عبوديتها لنرجسيتها ، أم ألوم نفسي على هذا القدر الأعمى الذي ساقني بطريقة أو بأخرى لهذه الحال

أم ألومُكَ يا الله؟

هل بإمكاني لومكَ؟

دخلت غرفتي، أردت أن أنفجرَ، أن أحطم شيئا، أن أكسر عظام أحد، وربَّما أردت كسر عظامها، نعم، هل من الممكن أن يتمنَّى الرجل كسر عظام أمّه، إنَّها فكرة آثمة بالتأكيد، بل إنَّها ضدّ الطبيعة، ضدّ المتعارف عليه، ضدّ الدين، وضدّ الله.

هل بإمكاني مجددًا أن ألومك يا الله، أم ألوم الطبيعة، أم أنَّها الظروف، ثمَّ ألست منشئها كلَّها، ألست أنت من خلق هذا؟

كنتُ أقف أمام أسئلتي حائرا، خائفا منها، لم أستطع الصراخَ، كان شيء ما داخلي أقوى مني يمنعني، ولم أدر كيف ضربتُ الحائط بقبضتي، وكسرت مرفقي، وبعض الأصابعِ، لم أتألَّم إلَّا بعدَ أن خرجت إلى الشَّارع، لا أصادق أحدا، ولا أحبّذُ أن أصاحب أحدا، إنَّه حقد دفين للعالم، لما فيه، للظروف، لكلّ شيءٍ .... وأحيانا لله!

تقاطعت طريقي التي أسلكها وأنا أسير تجاه سوق الفيروندو ببلوزداد، طريق عمي السَّاسي، لم أكن أريدُ أن أحدّثه، وفي اللَّحظة التي أردت تجاهله بها، ناداني مرَّة ومرَّتين، لكني استحييت من صداقة أبي القديمة لهُ.

-عمي السَّاسي واشراك.

سلَّمت عليهِ، ردَّ السَّلام، احتضنني، لكنّي تجاهلت حضنهُ، كان الغضب قد جعلني أحقد على كلّ شيءٍ، ثمَّ انتبه إلى أن يدي بها شيءُ، أمسكها، حاولت منعه، لكنَّه أصرّ.

-ما بها يدك، يا إلهي، هل تعرَّضت لحادث ما؟

-لا شيء سقطت والتوَت يدي وهذا كلّ ما في الأمر.

لم يشاورني، أوقف سيارة أجرة.

-اركب.

ركبتُ.

-إلى المستشفى من فضلكَ.

بعدَ القيام بالأشعة، ظهر أنَّها مكسورةٌ، فقاموا بوضع جبيرة عليها، ونحن بطريقنا نحو مخرج المستشفى قال عمي السَّاسي:

-أنا مثل أبيكَ، لا تتردَّد في التواصل معي أيَّما وقت، تعرف البيت جيدا وتعرف أين تجدني.

هل أمّكَ بخير؟ أضاف.

-شكرا لك عمي الساسي أعرف هذا، نعم بخير.

هكذا فقط رددت عليه.

-هيا بنا لنعود إلى المنزل.

رفضت بشدَّةٍ، وشكرته مرة أخرى.

-سأذهب إلى أحد أصدقائي من أجل بعض الدروس، وأعود بالمساء.

-تفضَّل، قالها بعد أن أخرج ورقة نقديَّةً من جيبه، رفضت بشدَّةٍ فغضبَ.

-أمسك، قلت أني مثل أبيك المرحوم، لقد كنا إخوة، ولم يكن صديقي فحسب.

مضيت في طريقي، وقد انكمشت ورقة من فئة 500 دينار، من أثر قبضتي عليها، هذا اليتم يزورك من حيث لا تتوقَّع، ويرمي بكَ إلى أسفل مما كنت تتخيل، لا أحبّ أن يتصدَّق عليَّ أحد، ورحتُ أجوب بأسئلتي، وخيالاتي، ترى لو كان أبي حيًّا، كيف كانت هذه الحياة ستكون؟

دخلت السّويقة، قصدت أحد باعة الكيف الذينَ أعرفهم، اشتريت بذلكَ المال قطعة لا بأس بها منه، وعلبة سجائر من نوع "ريم"، وورق تبغ، ثمَّ صعدتُ إلى أعالي المدينة، وتحت تمثال المرأة الحديديَّة رحت أرتّب اللفافات الواحدة تلو الأخرى، ثمَّ انسحبت إلى الأسفل قليلا، أُحرقني بنشوة الكيف، أحاول أن أنسى هذه المعاناة كلها، وهذا الضَّرر البالغ بحاضري، وفي المساء قصدت المنزل، إذ كان البرد شديدا، بعينين محمرَّتين، بدون عقل، أترنَّح

أحيانا، وحين اقتربت من المنزل، قسوتُ على وقفتي قليلا، صعدتُ الدَّرجَ، وتوافق قدومي مع خروج عمي السَّاسي من المنزلِ تبقيه أمي على خيرٍ، لم أرتح لتلكَ الوقفة أبدًا كانت النيران تلتهب داخلي.

-أتيت للاطمئنان على أمّك، وأنت كيف حال يدكَ، هل هي بخير، تؤلمك؟

تحمَّلت ابتسامةً جافَّة رمقته بها، كان في مظهره وهو خارج من الباب ترافقه أمي، شيئا لم أعتده، ولن أفعل —قلت في نفسي-

-يدي بخير شكرا على زيارتك عمي السَّاسي.

مسح على رأسي وذهب، وبقيت أتبعه بنظري، ثمَّ دخلتُ، قصدت المطبخ إذ كنتُ جائعا، وزاد في ذلكَ لفافات الكيف التي أَحرقتُني بها على خواء بطن ...

كانت أمي في كامل زينتها، ورائحة عطر نسائي تفوح منها بالمنزل، وأكياس من الخضر والفواكه على طاولة المطبخ، حتَّى الثلاجة كان فيها لحم.

-من أحضر كلّ هذا؟

-عمَّك السَّاسي، كثر الله خيره.

-ومنذ متى يفعل ذلكَ؟

-هل تريد أن نتشاجر مرَّة أخرى، هو صديق قديم لأبيكَ، أراد أن يقدّم معروفا إكراما لذكرى أبيكَ، هذا كلّ ما في الأمر.

كنتُ أريد أن أسأل عن هذا العطر الفائح بأرجاء المنزل، وهذه الزينة التي تضعها، ومساحيق التجميل، فعلتْ ذلكَ عدَّة مرَّات بعد موت أبي ولم تفعل في حياته، والآن تفعل ذلكَ، لكنّي لم أسأل، كذلكَ لم آكل شيئا، دخلتُ غرفتي مباشرة، وبدون سببٍ واضحٍ، رغم أنَّ كلَّ الأسباب واضحة، رحت أبكي، وأبكي كما لم أفعل من قبلُ، إذ بلغ بي الأمر ما بلغ من الأحاسيس المخيفة ومن الشكوك التي حطَّمت رأسي، هذه الأسئلة تقتلني.

-هل تكون ...؟

-لا، غير ممكن، الساسي كان بمثابة أخ لأبي، ولا يمكن أن ....

لم تتوقف الدموع من انهمارها، ونمت على تلكَ الحالِ بثيابي.

في الصباح الباكر، استيقظت على أذان الفجر، فتحت عينيَّ عن آخرهما، كنت وكأني لأوَّل مرَّة أنصت إليه، وكان صوت المؤذن شجيًّا، يريح الرّوح، ويعيد ما اندثر منها إلى مكانه.

اللهَّ أكبر، الله أكبر.

إنَّ وقع الكلمة، كان رهيبا، ها هي تثير فيَّ تساؤلات مرَّة أخرى، هل هو أكبر من هذا الجحيم الذي أعيشه، وإن كان كذلكَ فلماذا لا يخلّصني مما أنا فيه، غطَّيت وجهي بوسادة ثانية ورحت أبكي بحرقة، تنهمر الدموع نهرا من الآلام، والخواء، والأسئلة، ومرة أخرى أسأله بشدة وبغضبٍ.

أنت أكبر من كلّ شيءٍ، لذلك لا أظن أني أستطيع أن ألومك، لكني أفعل، وكنتُ في هذا كأني أتحدَّاه غير أني لم أكن أتحدَّى إلا ضعفي، الذي أصبح وحشا يلتهمني، ألوم هذه الدَّائرة الفارغة التي لم أستطع الخروج منها ..

إني ألومك، أنت كان بإمكانك أن تنقذني، لكنَّك لم تفعل، هل تختبرني؟

هل يفعل الجميع ذلكَ؟

ألم يمت أبي، هل يختبرني هو أيضا؟

هل تفعل أمي ذلكَ حين مُنعت من حنانها منذ اللحظة الأولى؟

ولو كان فعلا كذلكَ، وسواء نجحت بهذه الاختبارات كلها، أم لم أفعل، من سيرد شتاتي، وقطع روحي التي تتهاطل على أرجاء الزَّمن ومن يلملمها؟

أنت يا الله؟، أبي؟، أمي؟

من سيفعل ذلكَ؟

إني أحس بحقد بالغ تجاهكم جميعا، ولا أومن بكم جميعا، موجة أخرى من الغضبِ استولت عليَّ وكان عليَّ أن أزيلها، لكن يدي مكسورة، فهل سأكسر اليد الأخرى؟

حاولت الاستواء، بحثت في جيب معطفي الذي نمت بهِ عن سيجارة، وأشعلتها ورحت ُأدخن، أدخن فقط ...

أيَّها الصَّباح اللعين، أستقبلك بالتدخين والأسئلة ....

كانت السَّاعة تقارب الثَّامنة، وقد انتشرت حركة بالشارع أنصت إليها، تلكَ التي توحي أن الجميع قد باشر الحياة بطريقة عاديَّة، كأنَّ لا شيء قدْ حدثَ خرجت من غرفتي، وكان أوَّل ما لاحظته رائحة نسائيَّة ممتعة كانت لأمي، باب غرفتها كان مفتوحا، توقفت أمامه، كانت ملابسها المنزليَّة مرميَّة هنا وهناك، على بلاط

الغرفة وعلى سرير النَّوم، قد خَرجَت، لكني لم أسمع ذلكَ، كنت مستيقظا طول الوقت، الأمر الذي دفعني لأفكر أنَّها خرجت ليلا، تلك اللحظة التي تأكَّدَت فيها من نومي، كنت يائسا، أحس بالعجز، وأمور أخرى أعجز عن قولها حتَّى مع نفسي ..

حاولت البحث عن شيء ما بالغرفة، بالأدراج كلها، تحت الوسادة، تحت السرير، فوق الخزانة، بين الملابس، كانت الأقفال من دون مفاتيح، هذه الأخيرة التي لم تعد تعمل منذ وقت عطبها، وبينَ الملابس وجدتُ دليل اتهام آخر، وصعقة أخرى، أنا الذي حاولت نسيان قضيَّة دواء منع الحمل الذي عثرت عليه آخر مرَّة صدفة، كانت مجموعة من الواقيات الذكرية، بعلبة غير مكتملة، كان ينقص منها البعض، إنَّها تفعلها، صرت متأكدا الآنَ، وكجمرة محترقة توضعُ بالماء، لم أستطع حتَّى الغضب، بل إني غضبت حتَّى فقدت القدرة على الكلام أو الصراخ، أو أيَّ ردَّة فعل كانت لتكونَ طبيعيَّةً، تسمَّرت بمكاني، واحتلت غشاوة بصري ولم أعد قادرا على النظر، أو رؤية أي شيءٍ، وسقطت مغمياً على الأرضِ.

أفقت بالمشفى، وحينَ فتحتُ عينيَّ، وجدت أمي على رأسي.

-أنت بخير؟

حاولت الكلام لكنّي لم أجد ما أقوله، كانت تعلم أني أعلم ما وجدتُ بخزانتها، لكن لا أحد فتح الموضوع أمام الآخر، ولعدَّة أيَّام بعد خروجي من المشفى حلَّ صمت فادح، أكثر من أي وقت مضى بالمنزل، لا شجارات، ولا صراخَ، ولا أيَّ شيء من هذا القبيلِ

مرَّت أسابيع عدَّة، كنتُ أخرجُ حينَ أستيقظُ بعدَ الظهيرة، ولا أعودُ حتَّى بدايات الفجر الأولى، ولم أكن أجدها غالبا بالمنزلِ، أدخل غرفتي، أحاول إقناع نفسي بعدم مبالاتي بما يمكن أن تكون قد تفعله، وأنام، وأعيد نفس اليوم مئات المرَّاتِ، أخرج ولا أعو د إلاَّ ليلاً ..

مضى على حالي تلك، شهر وبضعة أيام، وكنت بإحدى اللَّيالي، أمام إحدى الحانات بالمنطقة الصناعيَّة، إذ لم يكن يسمح لنا بالدخول، وكنا نعتمد على أحد كبار الحيّ الذين نعرفهم يجلب لنا ما نريد، مقابل قطعة كيف أو قطعتين، برفقة بعض أبناء الحيّ الذين لم تكن ظروفهم أحسن من ظروفي، فقر، يتم، وقهر كبير، نتقاسم لفافة

الكيف التي تمر علينا بالدَّور، ونحتسي البيرة، ونحاول أن نضحك في وجه هذا العدم الذي نعيشه والخواء الذي يجمعنا...

واش الأحوال أ بشير -

قال أحد الجيران الذي كان ضمن المجموعة، والذي لم أكن أحبه ولا مزاحه الثقيلَ ولا كلامه، لكنه ببساطة كان واحدا من الشلَّة ولا يمكنني أن أعترض على مكوثه بيننا، غير أني كنت أتجنبه لثقل ظله وقذارة لسانه، وخبث سريرته الذي أعلمه جيّدا

-نحمدو ربي

-واش أمّك، أضاف خالتي زليخة.

أحسست بلؤم غريب بسؤاله، وزالت نشوة الكيف عني.

-وأنت واش دخلك في أمي.

-لا تقلق، مجرد سؤال، نحن جيران بالنهاية، ولابد أن يسأل أحدنا عن الآخر.

كان ثملا الحد الذي لا يفرق فيه بين الصواب من الكلام أو الخطأ، ما يليق منه أو لا يليق، وهو يقول هذا، لاحظت أنَّ بعض

الذين بالمجموعة كانوا مطأطئين رؤوسهم، بينما يمسكني الذي بجانبي من ذراعي.

-"مديرش عليه"، تعرفه غليظا.

كان يقهقه، ابن القحبة بطريقة حملتني على الانقضاض عليه، كنت أود فقأ عينيه، حال بيننا من كانوا هناكَ، ومازال يضحك ويقهقه.

-كان الأولى أن تغضب من عمّك السَّاسي، وليس مني، أنا لم أرد إلاَّ تنبيهك أيّها الغبي.

فقدت كامل أعصابي، أخرجت سكينا غالبا ما أحملها ليلا، لكنَّهم نزعوها من يدي وأخذوه بعيدًا النَّذل، وحاولوا تهدئتي، لكني لم أهدأ، أستلفت ورقة نقدية من عندِ أحد الرفاق الملاعين، كنت أترنَّح من السّكر والغضب، والعمى الذي أصابني، لم تتوقف السيارات لي لفترة بسبب حالتي، وكم كِلت من الشتائم يومها بصراخ عالي، توقفت سيارة أخيرا.

-بلوزداد خذني، بسرعة.

-"عندك باش تخلَّصني"؟

-هاك، أعطيته الورقة النقدية قبل أن أركب.

صعدت الطوابق الأربعة بسرعة، ووقفت أمام الباب، كأني خائف مما سأجده، أو ما سأفعله، أخرجت المفتاحَ، أدخلته ببطء شديدٍ بثقب الباب، ودخلت كاللصوص دون أن أحدث أيَّ جلبة ...

كان باب غرفة النوم، نصف مفتوحٍ، وكانت أصوات خافتة تنطلق منهُ، كأنَّها همس خفيفٌ، وآهات، حاولت البحث عن سكيني بين جيوبي، لكنّي تذكَّرتُ أن الرفقة قد أخذوه منيّ، تبّا، ولم أكن أعرف عما سأقبل عليهِ، أو ماهية ما سأفعلهُ، اقتربت أكثر وأكثر ...

لا يمكنني الاستمرار في التَّذكّر أكثر يا فطيمة الأمر يرهقني فعلا ويحملني إلى آلام لا عدّ لها.

وجدتني قد غفوت على حوض الاستحمام، فتحت عينيّ على أفظع الكوابيس هذه التي كنت فيها لم أستطع المكوث هناكَ لذلكَ خرجت من الحوض، أحطت نصفي بمنشفة وخرجت منه وتساءلت.

ما مقدار قوَّة اليتم بهذا العالم السخيف؟

لم تفارق فطيمة، عقلي، ولو للحظة، كانت المرأة الوحيدة التي فعلت هذا بي، ولم تكن لي علاقات سابقة مع نساء، وأقصد علاقة حبّ، عاطفة، أو ممارسة، إلَّا ما ندر من الحالات حين كنتُ أفيق صباحا رفقة إحدى فتيات الليل، غالبا ما أدفع لها أجرتها، بعد أن أتقزز منها، وألعن اللحظة التي ثملت بها وجرَّتني لمثل هذا... ليس لي في الحبّ، أنا الذي فقدته في لحظاتي الأولى، لا أحب أحدا، ولا يحبني أحد، حتَّى الله في لحظات كثيرة أحس أنَّه يكرهني، أو ربَّما ندم لأنَّه خلقني، لكني غالبا ما أستغفره لمثل هذه الظنون التي كانت تأتيني بين الحين والآخر.

لازالت لحظات قضيتها معها في كامل صحوي، لحظات قطعتها تلكَ العجوزُ البشعة، قطعت هدوءها وصفوها، لتخطف بعض الحنان مني، وبعض الذي لم أعرفه قبل ذلكَ، هل هناك مؤامرة كونية تحاول منعي من أن أحسَّ بالأمان ولو لفترةٍ وجيزة؟

هل هناكَ قوَّة كبرى تحاول فعل ذلكَ، وأيّ لعنة هذه التي تمر من خلالي وتفرض نفسها عليَّ، ولماذا، أم أنَّها الأقدار، هذه التي كُتبت

قبل ورودنا سطرا في البداية بقصيدة لم تكتمل بعد، قصيدة اسمها الحياة ...

حين خرجت من الغرفة، حاولت إيصالي إلى باب الخروج، كان منزلا من تلك البيوت العريقة، سطح الدار يبدو من الأعلى، وكانت عليه نسوة تغسلن الثياب وهنَّ مشمرات السيقان، تدخل الواحدة فيهنَّ جزءا من تنورة نومها التي لم تنزعها، أو جلابية من السَّاتان المنزلية، في خصرها، وتقهقهن، وربَّما قلن كلاما بذيئا، الأمر الذي حاولت ألاَّ أستغربه، رغم غرابته، كان السَّقف، سقف الدَّار، عاريا، إلاَّ من الكروم التي تملأ زواياه ،أو نبات اللَّبلاب الذي يتهاوى من هنا وهناكَ ،ونباتات كثيرة مغروسة تبهج وسط الدَّار وتفعمه بالحياة ،كانت النافورة التي لم يعد بها ماء تزيدُ الدَّار عتقا وكأنَّها متحف قديم وكنتُ أرى إحداهنَّ داخلة ومعها رجل، يبدو عليه أنَّه عسكري من ناحية ما، فشارباه الغليظان ووجهه الجبليّ ولباسه المتأزَّم المبتذل جعل من هذا الاحتمال أقربَ من أي احتمال آخر، هبطنا الدَّرج سريعا، وفي الرواق الضيّق الذي كان مظلما، حاولت الالتفات إليها، لكنَّها كانت خائفة جدا.

-أسرع، اذهب الآن.

-لا تنسَيْ الاتّصال بي قريبا.

-نعم، "روح برك "، اذهب.

بقيت أياما، أنتظر اتصالها لكنَّها لم تفعل، أظن أنَّها لم تبالي بي كما فعلت معها، ولم يأخذها شيء تجاهي، كما فعل بي تجاهها.

كنت حينها رجلاً بالغاً، أقارب 35 من عمري، إذا كان هذا الرقم يسمح لي بأن أصف نفسي بهذا الوصف، رغم أني بلغت حين توفي أبي، وكبرت يومها حتى صرت طاعنا في اليتم، والحزن، والأسى، وتعلمت كل شيء، كنتُ في محاولاتي الدَّائمة لنسيان كلّ ما يتعلَّق بما مضى من حياتي أمرا أجابهه في كل لحظة وحينٍ، وساعدتني فطيمة، تلك الفتاة التي تقاطعت أقدارنا فجأة بذلك وبطريقة غريبة، إذ كنت أستقوي على عقدي كلّها بالتفكير بها، بالذهاب بعيدا في خيالاتي التي بنيتها، معها، لأجلها فقط فعلت ذلك.

حين خرجت من الدَّار، التي كانت بقلب السّويقة،"الزَّلَّايقة" تحديدا، اسم الزنقة التي تواجدت بها دارها، التي كانت ماخورا

مخفيّا، لم أكن أعلم بوجوده، بقلب المدينة القديمة، وكنت أفكر ماذا تفعل فتاة برقتها، وعذوبتها، وشفافيَّة روحها في مكان كذاك، وبقي وجهها الملائكي بحزنه وغموضهِ مرسَّخا بذاكرتي، وملتصقا بها كل لحظة مضيت فيها إلى العالم، وإلى المدينة بعد تلك الليلة، وبضع صبيحة كانت من الجنة بكل تأكيدٍ.

حين خرجتُ، صعدت، تجاه درب السّويقة، أين أجتمع باعة اللحم الطازج، والكعك، وبعض المحلات القديمة، منها ذاك الذي كان بالزاوية يبيع كتبا قديمة، وبعض التحف، وأشياء أخرى لا معنى لها، تغويني مثل هذه المحلات القديمة، لم يكن ذلك المحل من تلك التي يمكنك التجول داخلها، فقد كان بضع مترات مربعة مليئة بالكتب، بينما يمتد في الخارج إلى شبه الرصيف الحجري، مكعبات الكرتون التي جمعت ووضع عليها قطع خشبية تمتلئ بالكتب والمجلات القديمة، وبعض الصور الفتوغرافيَّة لشخصيَّات مشهورة عبر التاريخ، بومدين، صدام، أم كلثوم، عبد الحليم....الخ، ومن ضمنها كانت صورة بالأبيض والأسودِ،

لامرأة جميلة، تشبه تلكَ التي كانت على الخزانة الصغيرة في غرفة فطيمة، كانت موضوعة بإطار جميلٍ، وعزمت على شرائها.

-بكم هذه الصورة سيدي؟

-عشرين ألف (200 دينار جزائري).

-من هذه التي بالصورة.

-إنَّها" أولقا تشيخوفا" يا ولدي، لم تسمع بها من قبل صحيح؟

-أبدا، ومن تكونُ هذه التشيخوفا؟

-فنانة روسيَّة، يقال أنَّها كانت الجاسوسة التي استولت على قلب هتلر، لا تخبرني أنَّك لا تعرف هتلر أيضا؟

ضحكت للبائع الشّيخ.

-بالطبع أعرفه، إنَّه هتلر، ومن لا يعرفه، أعجبتني ثقافته، فأردت أن أسمع المزيد عنها.

-إنها يا بني، نجمة السينما الألمانية، هاجرت من روسيا إلى ألمانيا، وكانت محاطة بالكثير من الألغاز والأسرار، معظمها لم يتم اكتشافها إلى يومنا هذا، كان هتلر يدعوها إلى كل الاحتفالات الرسمية، وكان مفتونا بها، وكانت محط انتباه المخابرات السوفياتية آنذاك، وفي ربيع

عام 1945 وصلت الحرب إلى برلين وبات الرايخ الثالث وزعيمهم أدولف هتلر يعيش أيامه الأخيرة. وقتئذ ظهر ضباط من جهاز الاستخبارات السوفيتية في منزل تشيخوفا في شهر أفريل ذلك العام وأخذوها على متن طائرة إلى موسكو واستقروا بها في شقة مجهولة. وبعد شهرين أعاد هؤلاء الضباط أولغا إلى برلين وتركوها، توفيت أولغا تشيخوفا عام 1980 وبقيت إلى وقتنا الحالي واحدة من النساء الأكثر غموضاً في القرن العشرين.

لا أدري لماذا كانت مقاربتي بفطيمة التي كنت عندها وهو يتحدث عن أولقا امرأة أخرى من التاريخ، وزاد شغفي بالصورة، حملت الصورة في كيس بلاستيكي، مغتبطا بها، ومضيت أجوب السويقة، وحين شارفت على الخروج منها، انحرفتُ يسارا، إلى تحت قنطرة سيدي راشد، كنت أحب التجوال هناكَ، بين المعتَّرين والفقراء، علّي أعثر على شيءٍ، ولم يكن ذلك هدفي الأول، غير أني أحب هذه الأماكن التي تبرع وبطبعها في وصف الحال، أكثر من أي خطيب مفوَّه، أو أي أحد يمكن أن يتحدث عن قسنطينة، فقسنطينة وحدها قادرة على التحدث عن نفسها، ولا أحد يحق له أن يفعل

ذلك، بل إنَّه لن يستطيعَ، أجزم بذلكَ، فمعناها غير قابل للوصول إليه، إنَّه محميّ بصخر لا هوادة له، وبهاوية لا مستقر لها .

إنَّها مدينة ظالمة لمحبيها، تغويهم حتَّى تقتلهم، وتمثّل بأسمائهم بعدَ ذلكَ، إنَّها مدينة لا ترحم الذين وهبوا أعمارهم لها، تمتصّ دماءهم حتَّى تنشف عروقهم، ثمَّ تتخلَّص منهم بكل بساطة، وتسمي بعد ذلكَ شارعا، أو مقهى على أسمائهم، وربَّما لا تفعل ذلك البتَّة، وتنساهم إلى الأبد، وتقذفهم مع الوادي السَّحيق الذي بأسفلها الذي لا يطَّلع عليه أحد، أين يضرب الماء موعدا مع الرمال والصَّخر الذي يجثوا منذ آلاف السنين هناكَ ...

أتذكر أغنية لبعزيز وأنا أكتب هذا.

ياماما حبيت نموت، نموت على النار شحال انتيك

بالاك يفهمو sans doute، يسميو عليَّ toilette public

يا أمي أردت أن أموت، أموت على النار، كم

ربَّما سيفهمون بلا شك بعد ذلك، ويسمون مرحاضا عموميا على اسمي

وابتسمت داخلي وأنا أقترح أني عندما أموت أن تسمى مراحيض المدينة على اسمي مرحاض البشير، ضحكت في نفسي، كم سيكون هذا منصفا ......

ثمَّ هل أكونُ ظالما حينَ أقول عن قسنطينة ما قلت، لكم أن تقولوا ما شئتم عنها، لكنني ورغم عشقي المرضي لها، أمقتها، هي التي ما رحمت يتمي يوما، ولا دفَّأت برودة جسدي بين أزقَّتها، لقد سقتني نبيذا، وضياعا، وأنبتت داخلي صخرة كبيرة، يلزم لوادي الرّمال آلاف السنوات كي ينحت منها قليلا أو يحطمها للأبدِ ...

إنَّها تماما كأمي ...

حين وصلت المنزل، وضعت الإطار الذي احتوى صورة تشيخوفا، على الرخام الممتد من جدار غرفتي، مكان مدفأة قديمة للخشب، ومددت نفسي على سريري، ورحت أحدّق إليها، ثمَّ غفوت قليلا على ليلة البارحة والصبيحة التي تلتها، على لذة ذلك غفوت ....

جاءت فطيمة تحمل صينيَّة الحليب السَّاخن إليّ، بينا أنا ممدد في فراشي، كانت تحيطها هالة من النّور، والشفافيَّة، كأنَّها حوريَّةُ من

جنَّة ما، يتهاوى شعرها على ظهرها نصف العاري، بينما ترتدي فستانا شفَّافا قد بيَّن جسدها الخرافيَّ، وكنت أنظر إليه أتمنى لمسه، الاحتكاك بهِ، والمضيَّ بعيدا في تفاصيله، وضعت الصينيَّة على ركبتيَّ بينما اعتدلتُ جالسا، أزحت الصينيَّة جانبا، وقرَّبتها مني، ورحت أرقب وجهها الطافح بالطفولة، وأتنسَّم أنفاسها العذبة، وحين أردت الاقتراب أكثر اختلَّ السرير وكأنَّ هزَّة أرضيَّة وقعت وحين التفتّ إليها وجدت ثعبانا كبيرا، برأس أعرفه، إنَّه رأس أمي، كانت أنيابها بارزة يقطر الدَّم منها ،وعمي السَّاسي أمام الباب يقهقه بوحشيَّة، كان يشبه إلى حد ما هتلر، وصوت جدَّتي القادم همسا بصدى، إنَّها أفعى، إنَّها أفعى، وفي حينِ أردت الفرار من ذلك، والبحث عن فطيمة التي اختفت فجأةً، حاولت الهرب، لكنَّ الأفعى التي حولي برأس أمي، وبأنياب طويلة لم تدعني، حاولت بكل قوَّتي لكنها التفَّت حول عنقي، تريد طحني، وعمي السَّاسي، يقهقه كان صوت قهقهته يصل المدى، كان يبدو الفوهر أحيانا، ولم أستطع التمييز، وجدَّتي تكرر بهمسها، إنَّها أفعى، إنَّها أفعى، افتككت نفسي منها بقوَّة لكنها تبعتني وحاولت التهامي.

استيقظت مذعورا، وكنت قد سقطت أرضا، لم أستطع التنفّس إلا بعد لحظات كان كابوسا بائسا، كابوسا لئيما ....

أي حرب كونية هذه التي تحاك ضدي ...؟

هل علينا أن نعيش هذا البؤس طوال حياتنا، أن ترافقنا عقدنا اللئيمة أينما رحلنا وحللنا، أن تغتال لحظات فرحنا المسروقة حتى في خيالاتنا، أحلامنا التي نهرب بها من قسوة الحقيقة، أو ما يخيَّل لنا أنها الحقيقة.

مضى أسبوع كامل ولم تتصل فطيمة ....

قد وصلَ موعدُ زيارتي الطبيب، طبيبي الذي يمدني بأدوية تساعدني على المضيّ قدما دونَ أن أفعلها وأنتحر، وكالعادة دخلت، انتظرت دوري وأنا أرقب الذين فقدوا عقولهم، وألوم أقرباءهم الذين أتوا بهم في محاولة واستجداء منهم كي يعيدوها إليهم، قد تفعل الأدوية ذلكَ والعلاجات وقد لا تفعل، أغلب ما أعتقده أنَّهم باستقدامهم إلى العيادة فإنَّهم سيزيدون الأمر سوءا، وأنَّ من فقد عقله لابد على المهتمين به ألا يتسببوا في كارثة إعادته لهُ، لأنَّ الوعي

الشديد هو من أهلكه، واللاوعي هو علاجه الجميل الذي يجعله سعيدا، غير مبال بما يحدث أو سيحدث، إنَّه يبعده عن الحقيقة التي لا طالما حاول الهرب منها، وعندما بلغ مشتهاه، ها هم يحاربونه ويعيدونها إليه بالقوَّة، لن يتركك أحد بسلام ما دمت حيًّا، لا ذكرياتك ستفعل، ولا عقدك، ولا البشر إنَّهم أكثر ضررا عليكَ من القنابل النووية، إنهم أشد فتكا من الرَّصاص إنَّهم أكثر إرهابا من الكوابيس اللعينة، والحقيقة الأشد لعنة ...

دخلت مكتب الطبيب.

-مرحبا كيف حالك، اجلس.

-كالعادة، لم يتغيَّر شيء.

-هل تنام جيدا؟

-أغفوا بين الفترة والأخرى، وهذا أحسن من أن لا أنام أبدا.

-إنَّك متفائل، قال الطبيب وابتسم.

-أنا متقبّل، أو بالأحرى أحاول تقبل ما أنا عليه، هذا كل ما في الأمر.

-المهم ألا تتوقف عن تناول أدويتك بالوقت المناسب، وهذا هو الأهمّ بالنسبة لحالتك الآن، أظن أنَّ التفكير بالقتل والانتحار لم يعد يراودك، صحيح؟

-الآن، لا، لكن لي كوابيس فظيعة.

-سأصف لك دواء النَّوم نفسه، لكن بجرعات أكبر هذه المرة بالإضافة إلى أدويتك المعتادة، أظن أنَّها تلائمك جيدا، لكن تجنب الكحول خاصَّة، إنَّه لا يساعدك على الامتثال للشفاء.

-شكرا دكتور، أراك بخير المرة القادمة.

كان التوقف عن تناول الأدوية، يعني ارتكاب جرائم، أو ربما انتحاري، فتصالحي مع الفكرة كان جيدا، ولم أكن أبالي به، ويكفي كي أفعلها أن أتوقف عن تناولها حتى أرتكب كارثة ما، كان الأجدر أن أكون بمصحَّة عقلية، تلك التي بجبل الوحش، لكني رغم هذا نجوت منها، فالطبيب صديق قديم لوالدي، وقد أشفق عليَّ من هذا، وأنا بدوري وعدته بتناول الأدوية بالوقت المناسب، ولم يكن سبب توقفي عنها خوفي من انتحاري، لأني وكما ذكرت متصالح مع الفكرة جيدا ،لكني كنت أخاف أن أؤذي أحدهم، أما نفسي فلا

تهمني، إذ كانت موجات غضبي مرضيَّة مؤذية الحدَّ الكبير، وغير المتوقع على الإطلاق.

بعد أن عرفت فطيمة بتلك الحادثة، تمسَّكتُ أكثر بالحياة، كانت غصنا، ولو أنه هشّ وبدون جذع متين، إلا أني حاولت التمسّك به، بكل قوَّتي، ولذلك واضبت على الأدوية بطريقة ليست كما كلّ مرَّةٍ، وكنت أحرص على هاتفي جيدا، وأحاول التأكد منه بكل لحظة علها تتصل، حتَّى أني توقفت لفترة عن شرب النبيذ، والتردّد على الحانات، والرفقة، حتَّى أكون منتبها دائما لو اتصلت، وكذلك آخذا بنصيحة الطبيب بالابتعاد عن الكحول، لأول مرة آخذ بها، هذه خاصة، وكان ذلك من أجلها، فطيمة....

مضى أسبوعان كاملان، لكنَّها لم تتصل، ولا زلت دائم التفكير بها، وبتلك اللحظة التي جمعتني بها ...

هل عليَّ أن أذهب إلى الزَّلايقة، وأطلب ببساطة رؤيتها، لكنّي ربَّما سأسبّب المشاكل لها، فخوفها كان كبيرا يومها، من أن يُكتشف أمرها، ظلَّت الفكرة ببالي، لم تفارقني، إذ لابدّ من رؤيتها كيفما كان، وكيفما سيكون لابدَّ من ذلكَ.

نمت ليلتها، وقررت أن أذهب صباحا إلى هناكَ، ثمَّ سأرى ماذا سأفعل حين وصولي.

أظن أنَّها علاجي الوحيد، وسعادتي التي كنت أبحث عنها، وصدفة وجدتها، لكني يجب أن أتوغَّل أكثر، فلحظة واحدة مع فطيمة لم تكن كافية، إذ لابد من جرعات أكثر كي أتماثل للشفاء من هذه الحياة، وهذه المؤامرة الكونية على روحي.

اعتراني شلل عقليّ، صرت لا أستطيع التفكيرَ، وتجمَّد الدَّم بعروقي، وأنا أنصت لتلك الآهات المنبعثة من غرفة النَّوم، كأنَّه حدث انفجار للكون داخل صدري، وتزايدت دقات قلبي حين وقفت في الزاوية التي رأيت منها ما يحدث بالداخل، فوق ذلكَ السرير الذي لم أرَ أبي نائما عليه سوى مرة أو مرَّتين ...ولوحده.

كان فوقها كالوحش، يلتهم كلَّ شيءٍ، يتصاعد شهيق كل منهما ويزفران آهاتٍ، يتلذَّذان، ينتشيان، تسري اللَّذة بجسديهما ولم أستطع مواصلة النَّظر إلى أمي بعريها المقيت الذي لم أستطع احتماله، والسَّاسي الكلب فوقها، عاريا تماما مثلها، يلتهمها وتلتهمه.

على أنقاضك يا أبي يفعلان ذلكَ، يسيران عليه بالموازاة مع يتمي بعدكَ، كانت تتلوى كأفعى تحت جسده، وكان يسكت جوعها الأبديَّ، بالقبلات، وكان ينزلُ ثمَّ يعلو بينما يعلو فحيحها، الآن أصبحت أكثر ثقة أني أحقد عليها، أكرهها، الآن فقط تأكدت لماذا فكَّرت بقتلها مرات عديدة، قبل أن أشرع في إشعال حرائقي بلفافات الكيف وقناني النبيذ، والكحول، يود قلبي لو يتوقف بعد دقاته التي كادت أن تسمع على بعد شارعين من هنا، لكنهما لا

يسمعانها، فلحظتهما أكبر من أن تسمعهما ضخَّات الدّم في عروقي ونبضات قلبي ال-سينفجر.

كانا يلتهمان عقلي الذي لم يعد يفكر بالطرق الصحيحة، بعدما صار ملتويا تهشمه الأسئلة والكوابيس والحيرة والتناثر كلَّما تذكرتكَ، غيابك يا أبي، وحضورهما الآثم، على سريرك الذي ما نمت عليه أبدا.

حاولت فعل شيءٍ، الصراخَ، أو ربَّما الموتَ، حاولت أن ألغي وجودي، ألاَّ أبالي، أن أبالي، لكن في كل هذه الحالات، لم يكن لما سأفعله قيمة، لأنَّ ما حدث وقد كان يحدث لا يمكن تغييره بأي وسيلة يمكن أن تكون اللحظة ...

سقط مني مفتاح الدَّار على غفلة من جسدي الذي لم يعد بإمكاني التَّحكَّم فيه، وعلى إثر ذلكَ انتفضا وكأنَّ زلزالا أصابهما، ووقفا يحدّقان إليَّ، بعريهما كانا يفعلان ذلكَ، ورحت أرقبهما، بيتمي، بمأساتي كلها رحت أفعل ذلكَ، ولثواني قليلة، كانت تقدَّر بآلاف الصرخات والسنوات، كان الزَّمن كأنَّه توقَّف فجأةً، وكأنَّنا صرنا

تماثيل، لأناس أصابتهم لعنة من السماء، فصاروا باهتين هكذا إلى الأبد.

كم أردتُ أن أقتلهما، أن أرى دماءهما تملأ الغرفة، وأن أغرقهما فيها، أن أخرج روحيهما وأعلقها على مداخل المدينة ومخارجها، وأن أمثل بجثتهما في الطرقات والأزقَّة، في الساحات أين العابرون، أردت أن أعلقهما، ليبصق الجميع عليهما، أي حقد ذاك الذي ملأ قلبي، وأحالني إلى تلكَ الصور الرهيبة التي تمنيتها لهما، في تلكَ الثانيتين التي توقف الزمن خلالهما، فصار قرونا كاملة، دهرا ....

الآن فهمت سرَّ استماع أبي لتلكَ الأغنية

لا تكذبي

إني رأيتكما معا

فدعي البكاء فقد كرهت الأدمعا

الآن بالذات أريد أن أنصت إليها، بروح جديدة أريد أن أفعل، بعدما انكشفت لي الحقيقة، وكرهت كل ما كان منها، أمي، وكل دموعها الحمقاء، لكني ما صدقتها يوما، كما فعل أبي، الآن فقط أكتشف سرَّ ما كان من خواطره في قصاصات الورق التي احتوتها

كتبه الكثيرة، كانت الخيانة بارزة كلفظة مباشرة، أو مقصودة في كل ما تركه من ملاحظات، كان يعلم بعلاقة بينها وبين السَّاسي الحقير، لكنَّه لم يستطع أن يتأكد، كانت كلها شكوكا، ولم يعرف أن علاقتها كانت مع أقرب المقربين إليه، ذلك الذي ذرف دمعا تمساحيا عند قبرهِ، إني أشكّ بشدَّة أنَّ للسَّاسي سببا في موته، ربَّما هو من أغرقه، كانت تمثيليَّة ربَّما حين سقطت أمي حين سماعها، وكان يعرف مكان المطبخ جيدا، إذ أتى بالماء بسرعة منه يوم أغشي عليها، الآن أعيد تحليل كلّ شيءٍ.

هل كانا يفعلان ذلك في حضور أبي، عندما كان حيًّا؟

إنَّ ثانية قد تكون بعمق زمن بحاله، وإنَّ زمنا بحاله قد يمر مرور ثانية، الأمر الذي يحصل معي كلما خلوت إلى نفسي برهة فتمر السنون كأنها ومضة، إنها أشبه بلحظة غرق، يمر شريط حياة الغريق كله أمام عينيه، فهل مرَّ هذا الشريط أمام عينيْ أبي حين غرق يومها؟ ليتني كنت هناكَ لأنقذه، ليت للتمني، وليست أبدا للرجاء، والأمنيات ستبقى أمنيات مهما حاولنا بلوغها، إننا نتمنى فقط ما يستحيل بلوغه أو الحصول عليه، خاصَّة عندما نكتشف حجم

الخسارات التي لحقت بأرواحنا، أرواحنا اليتيمة، وبفقداننا لكل قريب ثمَّ أنفسنا بعد ذلكَ، ليتني أستعيدني، لكن هذا لن يحصل أبدا...

أتذكر جيدا، تلك الأيام التي كانت تنشب فيها شجارات بين أبي وأمي، أقصد هذه التي من المفروض أن تكون أما، هذه التي كانت قبل قليل بين ذراعي رجل آخر غير أبي، أتذكر أنَّه كان يؤنبها بسبب اتصالات الهاتف التي لم يكن يُرَدّ عليها ولا يسمع صوت المتكلم حينَ يرفع السمَّاعة، وأحيانا يجدها تتحدث به، لكنَّها تغلق مباشرة بعد قدومه أو سماعه لها، وتنهي المكالمة، وتحاول أن توحي إليه، أنها تحدث أحد أفراد عائلتها، أمها ربما، أو أحد إخوانها، أخوالي طبعا، كانت تفعل ذلكَ طويلا حين يكون غائبًا، وبصوت خافت، وقهقهات مراهقة، الآن أعيد تحليل كلّ شيءٍ، وتلك التصرفات التي لم أعرها انتباها بتلك الأيام الغبية، إني أجزم أنها كانت تخدعنا جميعا.

كتب أبي بإحدى القصاصات التي وجدتها بأحد كتبه الكثيرة:

"إنَّ هذه الحياة مليئة بالشَّك القاتل، الشكّ الذي لا يرحم، ولهذا أثمل كثيرا، وربما أردت قتل نفسي والانتهاء من هذه العذابات، لكني أعود من أجل، بشير، من أجل أمي أفعل هذا، لذلك سأواصل، ولن ألتفت لها، هذه الشكوك القاتلة "

وفي قصاصة أخرى كتبَ

" أنا وحيد يا إلهي، وحيد كورقة خريفيَّة تدعسها الأرجل، ولا يسمع أنينها أحد "

وفي كتبه التي ترك، كانت كلمة خيانة أو خان، وكل مشتقاتها تحاط أحيانا بدائرة بقلم الرصاص وأحيانا علامات تعجب عديدة، كنت أعلم أنه كتب الكثير، كان يبيت الليالي يفعل ذلك، وربما كتب روايات، ودوَّن أفكارا كثيرة، لم تصلني، ولم تبلغ عيني قراءتها، ذلك أنَّ أمي أحرقتها كلَّها بعد وفاته، ولربَّما فعلت لأنها اكتشفتْ بعض حقائقها، وتجعل من تلك الأسئلة التي يطرحها، مجالا لشكي أيضا إن كنت قرأتها، لكنها لم تحرق الكتب ولم تعرف أنَّ ملاحظات طفيفة قد تكشف ما لا يمكن كشفه بنصوص أطول من ذلكَ، لكن ما نفع كل تلك القصاصات، والنصوص، إن كانت بالأصل أو لم

تكن، فالحقيقة المسمَّرة على الزَّمن كلوحة رسمها أحدهم قد عُلّقت أمامي الآن، وها أنا أحاول سبر أغوارها لكني لم أستطع تقبل الألوان بها، إذ كانت غير مفهومة، وباهتة الحدَّ الذي يعمي البصر، ويذهب بالعقل، ويصيب القلب بالانكسار إلى الأبد.

بعدَ موتِ أبي، لم يتوقف السَّاسي عن الشّر، بل أصبح صاحب حانةٍ مشهورة، أو لنقل، وكرا للشراب والعهر وكل موبقات العالم التي يمكن أن تكونَ، كان كما يقال وكما يعرف بلوزداد كله أنَّه تاجر بالمخدرات، وله سوابق عديدة، ويقال أيضا أنَّ له يدا بالدَّعارة، ولذلكَ ورغم تقديري لصحبته والدي القديمة، لم أكن أطمئن له بالدرجة الكبيرة، ولم أحب اقترابه منها، أمي، رغم جفاوة ما بيننا من أحاسيس، تلك التي يمكن أن تكون بين الابن وأمه، إلا ما ندر منها، وكان السَّاسي، يأتي ليأكل معنا، باسم الصحبة القديمة، ولم أكن أظن لوهلة أنه يفعل ما يفعل إذا تركتهما معا، كنت غبيا، لا، بل كنت صغيرا غير مدرك لهذه الأمور التي تحدث بهذا العالم الفظيع، كان منزلنا جزءا كبيرا من فظاعته يحويها، وتحويه، ويؤسس كل منهما فكرة الآخر ويدعمها .

لم أستطع التَّحرّكَ، ولا القتل كما أردت، ولا حتى الانتقام لي ولأبي، ولعمري ال-ضاع مني، لكني أصابني العمى، وضربات قلبي قد تباطأت فجأة بعد تسارعها الرَّهيب، ولم أنبس بحرف واحد إذ عجز لساني عن تشكيل أي جملة، وسقطت أرضا، وكنت أسمع أصواتا بعيدة، بعيدةَ

بشير.... بشير.... بشير

ورأيت أفعى تريد أن تلتهمني، ثمَّ وجه أمي، بأنياب طويلة، وفمها يقطر دما، ثمَّ ظلام، ظلام فقط.

استيقظت بغرفة المستشفى، كان أنبوب "السّيروم" مثبتا على ذراعي، ورنين آلة القلب يلقي بصوته إلي أذنيَّ، ولم أر العالم من حولي جيدا، وبعد أن زالت الغشاوة عنه، وجدتني كائنا ضعيفا لا يقوى على الحركة، ثمَّ بعد قليلٍ فتحَ باب الغرفة فدخلت الممرضة، وكان وراءها شخص، تبينت أنها أمي، فانسلخت بسرعة من فراشي، لا أعرف ما كنت أريد فعله بها، لكني لم أستطع فقد وقعت من على السرير، وأسرعت الممرضة إليَّ تحاول منعي، وحتى لو لم

تفعل ذلك فما كان بإمكاني فعل شيء، كنت أضعف من نملة، أو ورقة خريفيَّة تدوسها الأقدام، كنت كأبي حين كتب عن وحدته ....

" أنا وحيد يا إلهي، وحيد كورقة خريفيَّة تدعسها الأرجل، ولا يسمع أنينها أحد "

-"خرجوها عليَّ"، لا أريد رؤيتها، كنت أصرخ بهستيريا، والزبد يتطاير من فمي.

-أخرجوها.

-أرجوك سيدتي، يجب عليك أن تخرجي من الغرفة –قالت الممرضة

لم تنبس بكلمة واحدة أمي، خرجت بالحال، ومكثت أيام بالمستشفى، لم يأت لزيارتي أحد، إلا أحد الأطباء من المقربين لوالدي، كان يزورني بين الفينة والأخرى، وهو طبيب أعصاب، وأمراض عقلية كذلكَ، وأحيانا ما تأتي الممرضة، لتخبرني أنَّ أمي جاءت لزيارتي، وكنت أصاب بحالة غضب هستيرية كلما سمعت عنها، أو نطق أحدهم باسمها أمامي، ولم أرها منذ ذلكَ اليومِ.

أمي كانت أكبر انتكاساتي بالحياة .... !

بعدَ خروجي من المشفى، لم أذهب للمنزل أبدا، قمت بصنع طاولة صغيرة، زينتها بعلب السَّجائر، وملصق أو ملصقين لبوستات الإشهار للمارلبورو، ونوع آخر نسيته، ونصبتها أمام مخازنِ الخمر بالمنطقة الصناعية، مع الوقت أصبحت أبيع الأكياس البلاستيكية من النوعية الجيدة، والتي كان الزبائن غالبا ما يحتاجونها كي يضعوا قناني البيرة والنبيذ والمشروبات الأخرى بها، ثمَّ بعد زمن أضفت الفول أغليه بالماء، البيض المسلوق، وأصبح هذا عملي الدَّائم، وبعد تلك الحادثة التي لم أنسها حتى اللحظة التي أكتب فيها هذا الكلام

وكنتُ أبدأ العمل بعد الظهر تقريباً، حتى وقت متأخر من الليل، وصار الجميع تقريبا يعرفونني، أصبح لديَّ زبائن من السكارى، والمشردين، وحتى من الشرطة، وبعض القيادات الذين يمرون أواخر الليل بطاولتي يشترون السجائر أو ولاعات أو أشياء أخرى من التي كنتُ أبيعها، ولذلك لم تكن لديَّ مشاكل كثيرة، إلا ما ندر، وكان أصحاب السوابق المُهابينَ في المنطقة أو الشرطة يدفعون عني الأذى حينَ كنت أبيتُ بإحدى السياراتِ

بالمنطقة، وكان يسمح لي بذلكَ حارس الحظيرة بعد أن توطَّدت علاقتنا، وكان يأتيني بالعشاء من منزله، يتقاسمه معي، وأتقاسم معه لفافات الكيف، أو قناني النبيذ والبيرة التي كنا غالبا ما نسهر بها، على أنغام الموسيقى المنبعثة من مذياع إحدى السيارات التي كنا نبيت بها خاصَّة بأيام البرد القارس، والشتاء الذي لا يرحم.

أحيانا أسمع أخبارا عن الساسي، وعن المرأة التي معه، كنت أعلم أنَّها أمي، وعن الشبكة التي يديرانها معًا، وكنت أتابع الأحداث من بعيدٍ، ويحز في قلبي كثيرا، أنا ابن هذه القحبة التي يقولون عنها أنَّها قحبة، أنا ابنها، من صلبها، جئت إلى هذا العالم من خلالها، هل يجب عليَّ أن أكونَ شاكرا لهذا، أم مبغضا له لاعنا إياه بكل ما أستطيع من قوَّةٍ.

أحيانا لا أستطيعُ الصَّبر فأذهب إلى الجسر الكبير، وأعرضني عليهِ، لكنَّه يرفضني، وأجبن أمام الموتِ.

حتَّى الموت يرفضني.

وأحيانا تصيبني لعنات قدري، فأفقد أعصابي تماما، وأدخل في شجارات لا نهاية لها، وأصيب من أصيبُ بلعنتي تلكَ، وتزايد

الأمر معي حتَّى أصبحت غير قادر على التحكم في أعصابي، وحين تنهار أصبح مجرما، وأتخيل أنَّ الجميع عدوي فأهجم بكل ما أوتيتُ من قوَّة، ثم يصيبني النَّدم بعد أن أفعل ما أفعل، أكسر يد أحدهم، أو أدمي وجهه، أو أشارف على قتله لولا أنَّ النَّاس يحولون بيني وبينه، هكذا أصبحت وحشا، وحشا ضعيفا، ضعيفا جدا.

يا إلهي، ها أنا ألومك مرَّة أخرى، ولا أعرف إن كان بإمكاني أن أفعل ذلكَ أو لا، لكني أحس أني لا أحبّك، أرجوك أن تغفر لي، أنا الذي ما بيدي حيلة، وليس لي على قلبي حكم أو قوَّة أو بديل ...

لا يمكن أن أتخلى عن الأدوية التي كان يصفها لي صديق أبي القديم الذي كان يزورني أيام كنت بالمشفى، وصارت هيَ التي تهدئني، والتَّخلي عنها يعني التخلي عن الحياة، خاصَّة وأني أردت أن أنتحر يوما، على مقعد السَّيارة التي كنت أبيت فيها، بشفرة حادَّة، أخذني صاحب الحظيرة إلى المستشفى، لست أعرف إن كنت مدينا له بحياتي، أو أنه يجب عليَّ مخاصمته لأنه حرمني من الموت الذي كان يعني لي الحريَّة، وأن أكون طليقا.

يا إلهي، اقبلني عندك، يا إلهي، إني ألومك، هذا موتك يعافني، ولا يريدني أن ألتحم بهِ.

تكفّل بعدها صديق والدي الدكتور يوسف عزمي بكل تكاليف علاجي، حتَّى أنَّه أرادني أن أمكث عندهُ، لكني كنت أرفض، وكانت الحانات، وسيارات الحظيرة ملجئي وكنتُ أرفض مساعدته المالية، إلا ما ندر، وتقريبا كنت أزوره كلَّ ثلاثة أشهر حتى يصف لي الأدوية لأكونَ من العاقلينَ، ولا أفقدني كانت تلك بداية علاجي عنده.

كانت أخبار الساسي، والمرأة التي معه، والتي يفترض أنها أمي، تأتي على الغالب من السكارى ورواد الحانات، ولم يكونوا يعلمون أنها أمي، وكنت أحيانا أغادر حين أسمع ما يقال عنها، ولا أحتمل، بالمقابل، أسرع في تناول أدويتي المهدئة حتى لا أقدم على قتل أحدهم، أو ربما قتل نفسي، صرت لا أحبذ أن أسهر مع الناس، وأكتفي بعملي، وعزلتي إذا أنهيته بذهابي إلى السيارة لأبيت، أو بإحدى الحمامات التي يبيت فيها الغرباء والنازلون إلى المدينة، وأستيقظ صباحا لتلتهمني المقاهي، وأعدت خلال تلك الفترة

علاقتي بالقراءة، لكني فقدتها بسرعة، فقد كنت مشوَّشا أيَّما تشوّش، أحنّ إلى آخَري الذي كان يمكن أن يكون بحال أخرى وبقدر آخر.

وفي إحدى الليالي، وأنا مع "سعيد"، حارس الحظيرة، وبينا كنا نتسامر ليلا داخل إحدى السيارات أخبرني ما كنتُ لا أتوقعه وبطريقة مفاجئة.

-"الساسي سمعت واش صرالو؟"

-"الساسي تاع سان جان؟"

-نعم هو ومن غيره.

-لا لم أسمع.

-مات إثر حادث سيارة عنيف على طريق عنابة، هو والقحبة التي كانت ترافقه.

-كلاتلو راسو، أضاف.

ها هو الزَّمن يتوقَّف مجدَّدا، وعلى عزف النَّاي الذي أتى من مذياع السيَّارة لم أجد ما أقول.

ولم أعد أميزُ بين الناي وقلبي

كلاهما مثقوب ويفح بالأنين.

كنت بالصباح الباكر بالسويقة، وتحديدا بالمقهى الذي يقابل المحل الذي اشتريت منه الإطار الذي يحوي صورة أولغا تشيخوفا، الفنانة التي أحبها هتلر كما ذكر صاحب المحل الهرم وهو يقهقه، حينَ دخلتُ باغتتني سحابة بيضاء من دخان السَّجائر، ورائحتها ورغم أني مدخن غير حديث العهد بالتدخين إلاَّ أنها صرعتني في البداية، وحاولت الذهاب إلى "الكونطوار".

بين الطاولات الملتصقة ببعضها، كان الصراخ يدوي المكانَ، تتعالى الأصوات دون أن تنخفض لحظة، تختلط معها طقطقات حجر الدومينو المتتالية يصرخ أحدهم على صاحبه، ويخيَّل إليك أنه سيقتله بعد قليلِ.

-"قلت لك من الصباح دوس "

-"والله ما هدرت كلمة كون أني قفلت عليه "

-"نعبو الديمينو لي تعرف تلعبو أنت"

هناكَ بالطاولة الأخرى، أين يحمل الجميع سيجارة بفمه، يطبق صمت وسط هذه الفوضى، كانت لعبة الورق في أشدها، ولابدَّ أنَّهم يلعبون من أجل المالِ، بينا يصرخ أحدهم.

-"جيبنا تاي، ساعة وأنا نعيط على ربّ التاي هذا "

كانت الوجوه خاشعة في ما تفعله، ويبدو أنَّهم كلّهم من الذين لا أعمال لهم، أو المتقاعدينَ، وبعض الوجوه كنت أراها في تلك الأيَّام التي كنت أبيع فيها السجائر والفول في المنطقة الصناعيَّة، من العربيدين مثلي والضَّائعين، وكان البعض منهم يجلس دون أن يفعل شيئا سوى التَّحديق، ولذلكَ ها هم يحدقون بي، أنا الغريب عن هذا المقهى، والذي لم أكن فيه في أي يوم، أو في أي صبيحة ...

--"مرحبا بيك خويا" قال الرجل وراء الكونطوار.

-"بيك يعيشك، اعطيني قهوة تقيلة "

كان من الصَّعب أن أجدَ كرسيّا فارغا أجلس عليه، ثمَّ فجأة حطَّ نظري على أحدهم غادر مكانه، فسارعتُ إلى مكانه، جلست، وضعت قهوتي، وأخرجت سيجارة وحاولت التَّأقلم مع هذا الجو،

وقبل أن أشعلها قال الذي يقاسمني الطاولة والذي كان إلى طاولته نصف كوب من التَّاي أو أقل من النصف.

-"ماعندكش قارو"؟

أكره هذه الطريقة قلت في نفسي.

-قد رأيت العلبة قبل قليل، قل أعطني سيجارة، ولا تسأل إن عندي أو لا.

لم يكن قولي له بدافع أن أحرمه سيجارة لكنَّ هذا الصّنف من الناس، أعرفه، وغد من مظهره، من المستفزين، المتهزين الذينَ لا يتركون ثغرة دون أن يملأوها، أو غريبا دونَ أن يستولوا على كل ما يملكه بطرق خبيثة، هذا ديدنهم وعملهم الدائم، رأيت منهم الكثير بتلك السنوات التي كنت أعمل بها في المنطقة الصناعية، أعرف هذا الصنف جيدا، ولم أرتح له حتى قبل جلوسي بالمقعد

أعطيته سيجارة.

-ولاَّعة من فضلك.

نظرت إليه، بلؤم كي أبيّن أني غريب عن الزنقة فقط، ولست عابر سبيلٍ، ثمَّ أعطيته الولاعة.

-لابدَّ أني رأيتُك قبلَ اليوم –قال –

-نحن من مدينة بائسة واحدة، لابد أنَّك رأيتني فعلا.

-وأين تسكن؟

-لماذا تسأل؟

-أحاول التَذَكّر فقط أين رأيتك من قبل.

-وأنت أين تسكن؟ قلت.

-أنا من هنا، من هذا البؤس الذي ترى، من" الزلاَّيقة "

انكشفت نوايا أخرى تجاهه ما إن سمعت باسم سكناه، لابد أن أسأله عن فطيمة، لكنَّ وجهها الخائف، الذي خرج لي أمام وجهي، يومها، جعلني أتردد في السؤال عن هذا الأمر.

كانت خائفة جدا، ومن عادتي أني حريص أكثر مما يجب، هكذا علمتني الحياة، الحرص، وعدم الوثوق بالآخرين مهما كانوا، لكني سأحاول استمالته قليلا.

-أنا من بلوزداد، أقصد سان جان.

-خيار النَّاس، أظن أني رأيتك هناكَ، عندك سيجارة أخرى؟

قلتُ في قلبي، سأعطيك علبة السَّجائر كلَّها، أخبرني فقط عن فطيمة؟

-أنت لا تخجل أبدا؟ قلتُ.

-لماذا أخجل، هناك من يطلب أكثر من سيجارة ولا يخجل، هل عليَّ أن أخجل بهذا، أنت عندكَ السَّجائر، وأنا لا، فلماذا لا أستغل الوضع القائم، ضحك بخبث، وأخذت ضحكاته تتزايد.

أخرجت سيجارة، حاول أن يأخذها، أمسكتها من الطرف سحبتها حين حاول أخذها.

-أريد أن أسألكَ أمرا.

-أعطني السيجارة، واسأل؟

-هناكَ منزل بالزلايقة، منزل من تلكَ المنازل العتيقة، فيه نساء يعملن هناكَ، وامرأة عجوز، أظن أنَّها السيّدة فيه وصاحبة القرار، تعرفه صحيح؟

ضحك بشدَّة، ثمَّ أردف.

-قل هكذا من البداية، تريدُ أن تبردَ نارا داخلكَ، ما أسهل الأمر، لكن بالصباح الباكر؟، الماخور لا يفتح بهذا الوقت ربَّما يجب عليكَ الانتظار حتَّى التَّاسعة والنصف، أو العاشرة.

ضحك مرَّة أخرى بشدَّة.

-عندك، سيجارة، قال مرةّ أخرى وكأنَّه يفعل ذلكَ للمرة الأولى.

أخرجت سيجارة أخرى، أرفقتها بالولاعة.

-تشرب قهوة؟،سألته.

-نعم، قال، سيكون لطفا منك، وبعدها أجيبك عن ما تريد، وضحك بخبث مرة أخرى.

جاء النادل بقهوة بعدما ناداه، وأشعل سيجارة، وضع الولاعة على الطاولة.

-إذا، أخبرني، أريد أن أسألكَ عن إحدى الفتيات هناكَ، طبعا إن كنتَ تعرفهنَّ كلّهنَّ.

-بالطبع أنا من يعرفهنَّ كلَّهن، لقد كبرت هنا، وأعرف قصتهنَّ جميعا، وكنت شاهدا على المرَّة الأولى التي أُحضرن فيها إلى هنا،

عذراوات، أو ربما غير ذلكَ، وأعرف تاريخهنَّ، كيفيَّة تفكيرهنَّ، من فيهنَّ التي تريد أن تسأل عنها، أو التي تريد أن تضاجعها، بخبث ولؤم قهقه مرَّة أخرى.

-من هو الزَّعيمُ أولا قبل أن أسأل عن الفتاة التي أريدُ.

خفض صوتهُ حينَ بدأ الحديث عنهُ، وطالبني بأن لا أتفوَّه باسمه إلاَّ همسا، فالذين يعملون لدى الزعيم كثرُ، وهو رجل خطير جدا، الكل يخاف بطشه وغضبه بهذا الحيّ وبأحياء كثيرة، ولذلك طلب مني ألاَّ أعودَ لهذا الموضوع وفجأة قال لي:

-أنت من الشرطة؟

-لا لست كذلكَ؟

-كنت تبحث عن قحبة ما، فأردت أن أساعدك، أما وقد توصَّل الحديث إلى هذا المستوى فسأنسحب، أصلا من أخبرك أني أعرف هذا الذي تتحدَّث عنه، أنا رجل "قدي قد حالي" ولا علاقة لي بهذه الأمور، ونهض فجأة حاول المغادرة، غير أني منعتهُ، أمسكته من ذراعه قبل أن يذهب.

-تفضَّل علبة السَّجائر كلَّها، وإن أردت أعطيتك مالا، كم تريد؟

-طيب —قال-، وأمسك علبة السجائر، لكن ليس هنا، سنلتقي في مقهى الجودي ببلوزداد، بعد ساعة إن شئت، أو اختر مكانا آخر.

-حسن موافق، سنلتقي هناكَ.

وخرج مباشرة، قمت بتسديد ثمن ما قد شربته وشربه هو الآخر وبعد أن غادر مباشرة ثمَّ غادرت أنا أيضا، وقبل أن أغادر الحيَّ، أطللت من أعلى الزّقاق، على تلكَ الدَّار التي بها فطيمة، ثمَّ مضيت إلى بلوزداد، أين سألتقي بالرّجل الذي لم أعرف اسمه بعد ساعة كما قال.

لم أحزن كثيرا حين ماتت أمي بتلكَ الحادثة التي وصفها البعض بالمؤلمة، لم تكن أكثر إيلاما من حياتي كلّها، ومن جنون كاد يصيبني، وعقل كاد أن يفارقني، لولا تدارك من الطبيب، صديق أبي القديم الدكتور يوسف عزمي، بل فرحت أكثر لموت السَّاسي، ولا أنكر أنَّ بعض الحسرة قد لاقيتها، أثناء حضور جنازة أمي، ذرفت دموعا، لا أنكر ذلكَ، ولا أنكر أني أحسست بانفصال جزء من روحي وذهابه دون رجعة، لكنَّ عزائي كان في أن يترك النَّاس الكلام عنها، وعني، خاصَّة أولئك الذين لم يعرفوا أن من يصفونها بأبشع الصفات أنَّها أمي، وأنّي ابنها الذي لم يستطع حيال تفاقم الأوضاع، أوضاع حياتها، شيئا، بل أصابه انهيار نفسي ، وعاطفي وجسدي، كاد أن يودي بحياته مرَّات وما أكثرها.

كنت كلَّما مررت ببلوزداد، تفاقمت النظرات من حولي، وأصبحت أهرب منها ومن كلام النَّاس، وأنا أدرك ما يقولونه جيدا، كان ذلكَ حين كانت بالحياة، والآن أصبحت مثيرا للشفقة أكثر، ولا أحب أن أثير شفقة أحدهم.

لم تكن جنازة لائقة كما يجب، وتكفَّل بعض المحسنين بها، وعزَّاني بلوزداد كله، الجيران الذين أشفقوا لحالي، كنت كلَّما مررت على أحدهم سلَّم عليَّ وقبَّلني، واحتضنني وقال "البركة في راسك، ربي يعطيك الصبر"، أي صبر هذا الذي سيعطينيه الله، لم أنله طوال حياتي وليس فقد أمي من أعزَّى فيه فقط، بل فقدُني، وفقدُ عقلي لولا الأدوية التي أتناولها باستمرار وإلا مت نكدا، أو انتحرت، ثمَّ هؤلاء الذين يذكرون الله، هو حتما كان معهم دائما، لكني لا أعرف متى كان معي، كنت أسأله طول الوقت، وأطلب منه أن يزيل هذه الحياة البائسة عني، ويستبدلها بأخرى، لكنَّه لم يفعل، إنَّه اختبار منه لك، كان يقول الدكتور عزمي لي كلما وجدني يائسا، أو كلما ألقيت نفسي على الأريكة المريحة التي بغرفة علاجه، هناك أين يسألني أسئلة عميقة، تؤلمني تارة، وتخرجني أحيانا مما كنت فيه، وكنت لا أنهض منها إلا والدموع تنهمر من عيني، ثمَّ يصف لي أدويتي، ويعطيني ثمن شرائها، وكنت أقبل أحيانا، وأحيانا أرفض، لكنَّه كان يحتّم عليَّ الأمر تحتيما، حتى آخذها ثمَّ أشتري بها من أقرب

صيدلية حياتي المفقودة، حياتي الآيلة إلى الجنون والذكريات والأسئلة...

دخلت الشقَّة، بعدَ عامين من الغياب، والبرد، والتمزق بين شوارع قسنطينة، في أزقتها، حاناتها، أماكن قذارتها، اشتقت، لن أنك، إلى هذا المنزل الذي كبرت بهِ، وكبرت معه ظنوني، وأسئلتي، ومعاناة روحي، دخلته كأني لأوَّل مرَّة أفعل، ورحت أحدق بالرواق المؤدي إلى غرفة النَّوم، ولم أشأ تذكر شيءٍ مما قد حدثَ، باغتتني ذكرى والدي، وأصبحت أراه يبتسمُ، وهو يدخل المنزل يضع ما قد أتى بهِ من السوق، يرفعني عاليا إلى السماء ثمَّ يعدني أنه سيفهمني بما تقوله كتبهُ، تذكرت أمي رغم كلّ شيءٍ، تحمّمني بعد توسّخي بالكامل من أثر اللعب ببلوزداد، والتعلق بأشجاره العالية، تذكرت غضبها الدَّائمَ، حنقها الشديد على الجميع، حتى على نفسها، تذكرت كل ما يمكن أن يمر بالغريق، لم يكن أبي الغريقَ الوحيد الذي التهمه البحر، ها هو بحر الضياع يلتهمني، ويعيد الشَّريط، شريط ما تسمى الحياة أمام عيني، ثمَّ يأخذني إلى أعماقه دون أن يتوانى لحظة في أن يشربني ماءه المالح، تقدمت

خطوة، وأخرى، كانت صورة تجمعنا ثلاثتنا أنا وأبي وأمي لازالت معلقة على الحائط، أخذت أنظر إليها، وأخذت دمعة مجراها، تحفر خدي، كانت ساخنة كحمَّى، باردة كصقيعٍ، مالحة كبحر، توجهت إلى غرفة النوم، لكني لم أقدر على دخولها، لذلكَ دخلت غرفتي واستلقيت بها، وفي المساء زارني الدكتور يوسف عزمي، أحضر معه بعض الأغذية، ووجبة عشاء جاهزة، وجلسنا نتبادل الأحاديث، وأراد بشدة أن يخفف عني ما ألم بي، ورحت أسايره.

لا شيء بالعالم سيخفف ثقل سفن اليتم التي تسبح ببحر هبائي الممتد حتى اللانهاية، حتى اللاشيء، إنَّه ليس طريقا مسدودا، لكنه مفتوح نحو الأسئلة كلها، ولذلك لا مجال للتَّوقف، أو المواصلة، كان ما حدث قد حدث، وما سيحدث لن يكون بعده أي قيمة.

افترقنا، بعد أن غادر الدكتور، شكرته، وبعد خروجه اكتشفت أنَّه تركَ حزمة من الأوراق النقدية، فخجلت منه مرَّة أخرى، عزمت أن أردَّ له جميله الذي كان دائما يغرقني به يوما ما.

في الصباح الباكر استيقظت، ذهبت إلى زاوية أبي بمقهى الجودي ببلوزداد، وجلست هناكَ طويلا، أمد بصري حيث اللاشيء، وفيما

أرقب كلَّ شيء، كان عقلي في مكان ما ورائيِّ، ما وراء كل شيءٍ، أحلل حتى نسمة الهواء التي تعبر خياشيمي، ووجوه المارة الذين يعبرون، بطرق يصعب على اللغة بلوغها، وبين الفترة والأخرى يدخل أحد من الحيّ، يقبّلني، ويحضنني ويعزيني، حتى مللت من الأمر، وعدت أدراجي إلى المنزل، بعد أن قمت بشراء ما يكفي من السجائر، وبعض الحاجيات، ومكثت به ما يقارب الأسبوع، لم أغادره.

حاولت أن أغيّر به بعض الشيء كما نصحني الدكتور، ووجدت هذا مفيدا، بدلت الأغطية، ونظفت الغرف كلها، لا سيما غرفتي وغرفة النوم التي كانت لأمي رميت كل أغطيتها في القمامة، رميت كل شيء كان موجودا بالخزانة، ملابسها، وبعض ملابس ذلك النَّذل السَّاسي، لا رحمته السَّماء، كان الأمر مؤذيا جدا، وضّبت الخزانة بملابس أبي رحمة الله عليه و بعض ملابسي، نظفت الحمام والمرحاض، والمطبخ، غسلت كل الأواني ووضعت كل شيء بمكان غير مكانه، وضَّبت كتب أبي، وضعتها كلها على تلك الرفوف بغرفتي التي لم أغيّر بها الكثير غير أني مسحت بلاطها بالماء والرغوة،

ورششت بعض عطر المنازل بها وبأرجاء المنزل كلّه، ثمَّ لاحت لي رغبة أن أقرأ كتابا، وفتحت واحدا ورحت أقرأ، ثمَّ الذي بعده، ولم أترك ذلك الفعل الجميل أبدا.

أحيانا كنت أضع عبد الوهاب، وأستلقي أنصت إلى أغنية أبي التي اعتاد سماعها، أضع أسطوانته

لا لا لا تكذبي

.....

ماذا أقول لأدمع سفحتها أشواقي إليك

ماذا أقول لأضلع مزَّقتها خوفا عليك

أأقول هانت؟،أأقول خانت؟

أأقولها

لو قلتها أشفي غليلي .... يا ويلتي

لا لن أقول أنا فقولي

سرى لحن العود بأرجائي، وعمَّرها، وأحسست أنَّ بعض الفراغ داخلي قد مُلئ، وأحسست ببعض السكينة وغفوت.

ظللت ربع ساعة بمقهى الجودي ببلوزداد، وفي المكان الذي اعتدت الجلوس عنده تلك الزاوية التي تطل على جانب من بلوزداد، تقابلني مدرسة الإخوة بوجريو، أنظر إلى الأطفال الذينَ قد خرجوا منها توّا، مبتهجينَ، ذكورا وإناثا كانوا يخرجون بفرح يحتضنهم آباؤهم أو أمهاتهم الذين كانوا في انتظارهم، أراد أحدهم أن يجلس بالمقعد الذي يقابلني، لكني أخبرته أنَّه محجوز، وسيأتي صاحبه بعد قليلٍ، فعبَّر عن استيائه وذهب إلى مقعد آخر، وهو يتمتم، والأكيد أنَّ تمتمته تلك كانت وابلا من الشَّتائم الموجهة لي ...

في وسط فوضى المقهى الواسع، تندفق إلى مسامعي أغنية لعوابديَّة، هذا الفنان الكبير الذي لم تنصفه المدينة كما فعلت مع غيره من الفنانين الآخرينَ، أحب صوته الغليظ حين يتشابك مع الموسيقى التي تعزف، كان يغني يا ظالمة، وهي أغنية من التراث القديم، كنتُ أغمضُ عينيَّ وأنا أنصت لها متجاوزا فوضى المقهى، محاولا أن أركّز معها حتى نسيت الموعد تماما.

سمعت إزاحة الكرسي المقابل لي بالطاولة عن مكانه، فتحتهما ووجدت الرجل قد أتى أخيرا.

-انظر، هل ترى كم السَّاعة، أخرجت الهاتف لأريه الوقت، لأنَّ ساعتي كما ذكرت سابقا قد ذهبت حين طرحني أولئك الأوغاد أرضا، لولاه، هذه التي تشتّت فكري بسببها خلال الفترة الأخيرة، عن فاطمة أتحدَّث.

-يبدو أنَّك سريع الغضب، بالمهل يا صديقي، لكل غائب حججه وإن لم تقنع الآخرين.

-المهم، لندخل بصلب الموضوع.

أخرجت علبة مارلبورو كنت قد اشتريتها قبل بلوغي المقهى وورقة نقدية من صنف 2000 دينارا، ووضعتها على الطاولة.

-هل هذا كافي كي ندخل بالموضوع مباشرةً؟

ابتسم بلؤم.

-كافٍ، جميل، إذا تريد أن تعرف من يكون الزعيم، أخبرتكَ أنَّه رجل خطير جدا، ماذا تريدُ غير هذا، وأخرج سيجارة بعد أن فتح العلبة بسرعة، أشعلها.

-ألن تطلب شيئا لنشربه؟

-هل تهزأ بي، أريد أن أعرف كلَّ شيءٍ تحدَّث هيا، ناديتُ على النَّادل، فجلب له قارورة عصير.

-اشرب تشرب الرَّهج، قلت في نفسي.

شربها دفعة واحدة، ومسحَ فمه بكم قميصه.

-اسألني لأجاوبك ..

-ما علاقة الزعيم هذا بذلكَ المكانِ، ثمَّ أريد أن أعرف أيضا عن تلك الفتاة التي هناكَ، أخبرتني أنَّك تعرفهنَّ جميعا، إنَّ غرفتها بالطابق العلويّ.

أنت مجنون على فكرة، إلا تلك لا تفكر الاقتراب منها، ستموت لا محالة، إنَّها فتاة الزعيم المدلَّلة، وهي لا تقيم علاقات مع أحد سواه، أو بعض المجرمين الكبار الذين تخدمهم حين يأتي بهم إلى هناكَ، ويكرمهم بها، تعرف ماذا أقصد، هل تركت كل القحاب اللائي هناك لتريد هذهِ ، إنَّك بالفعل مجنون.

-يناديها الجميع بالروسيَّة اسمها فطيمة، أرأيت جمالها، إنها أجملهنَّ جميعا، ولابدَّ أنَّ بذرتها غير بذرة الأخريات في الدَّار، إنَّها فتاة يتيمةٌ على ما أظن، وتلك العجوز قد قامت بتربيتها منذ الصغر،

ومنذ الصغر حافظت عليها، لكنَّ الزَّعيم لم يتركها وشأنها لقد فعل الكثير كي يحصل عليها، ولابدَّ أنَّ للعجوز ديْنا كبيرا له حتَّى تُمكّنه منها، هي الآن لهُ منذ أن بدأت بالبلوغ لا يجرء أحدهم على التحدث إليها، أو حتى النَّظر، الزعيم سيفصل رأسه عن جسده.

-هل هو بكل هذه الخطورة؟

-يا رجل أصله مجهول، عدَّة حكايات تُروى عنه، وهو قاتل متمرّس، قتل الكثير من الأشخاص في كل مرَّة يدخل السّجن يخرج ببساطة، وينجو من العقوبة، يقال أنَّ هناك أيدي من فوق تدعمه، تفهمني ماذا أقصد، إنَّه يخدمهم، كما يلقون عليه غطاء الحماية مقابل ذلكَ، ثم إنَّ آخر رجل اقترب منها، حطَّم الزعيم عظامه، ونفاه بعيدا عن السّويقة، لا الأمن ولا الدّرك يمكن أن يتدخلوا بهذا الأمر، إنَّه لا يترك أثراَ، ولا يتكلَّم كثيرا، إنَّه ينفذ فقط، وكما للدولة مخبروها، وأظنه منهم، وهو كبيرهم فله مخبرون بكل مكان، وبكل زاوية، وهو يدير تلكَ الدَّار، أو الماخور سمّه كما شئتَ، ويتاجر بالمخدرات، وله علاقة مع كل البارونات، بالداخل والخارج، هل تفهم ما معنى أن تتحدَّث عنه هناك بالسويقة وفي ذلك المقهى

بالتحديد، أنا لا أريد المشاكل لا أحبها ولذلكَ لم أشأ أن نكمل موضوعنا هناكَ، إنَّه أمر خطير هذا الذي تفكر به، يا أخي" شوفلك قحبة في أي بلاصة خلاف"، واترك عنك هذه ال-ينادونها الروسيَّة أو فطيمة أو الزفت ...

كنت بينما أدخّن، أستمع إلى ما يقوله، ولم يبلغ قلبي أدنى ذرَّات الخوف، كنتُ أريدُ الوصول إليها بأي طريقة، ودونَ أن أتسبَّب لها بأيّ مشكلةٍ، وبحذر شديد كنت أنصت له، وأفكر بالوقت نفسهِ.

- هل هو متواجد دائما هناكَ، أقصدُ بالماخور، أم أنَّ له وقتا محددا، يأتي به؟

-شوف، هو يسيّر الأمور من بعيد دائما، لكن أعينه هناك، كما بكل مكانٍ، لذلكَ تجنّب الحديث عنها مع أي أحد حتى ولو دخلت هناكَ، لأنَّه سيقتلك بكل بساطةٍ.

-ألا تخرج من هناك أبدا؟،أقصدها.

-لا فالزعيم لا يسمح لها بذلك، إنَّه يغار عليها حتى من نظراتٍ عادية يمكن أن تقع عليها، وفي الغالب يأتي ليأخذها ليلا، ولا أدري إلى أينَ يذهب بعد ذلكَ، أنا أحاول تنبيهكَ، اترك عنكَ قصَّتها هي

بالذَّات، النساء أمامك في كل مكانٍ، ثمَّ اليوم الثلاثاء وهو غالبا ما يأتي ليلعب الورق هناكَ.

وجدتني أريد أن أرى هذا الوحش الذي يتكلَّم عنه هذا الأحمق الذي أمامي، وفعلا لم أفكّر بالعواقب، كان كلّ همّي فطيمة، وما يتعلّق بتلك اللحظات التي كانت بيننا، لولا أن قطعتها تلك العجوز، لكانت أكثر طولا، ورغم قصرها، فقد تركت أثرا بالغا بالروح، وجعلتها تشعر بشيء من السعادة والغبطة والسرور اللذَيْن حلَّا بها فجأة، وقد تطوَّر منذ مغادرتي من هناك وحتى هذه اللحظة، فكرت كيف سيكون الأمر رائعا لو عادت تلكَ اللحظة، لأتشبث بها، وأتعلق أكثر، لن أتركها تذهب من بين يديَّ مهما بلغ الأمرُ، إنَّها اللحظة التي بحثت عنها روحي طوال حياتي.

-أين سرحت ؟، قال الأحمق.

-سنلتقي مساء هناكَ.

-تكون مجنونا وأحمق، أنا لن أدخل معك في أي من حماقاتك، ما أردتَه قد نفَّذته لك، وجاوبتك عمَّا أردت أن تعلمه، لكن أن تحاول دخول جحر الأفعى فلن أدخل معكَ، أُلدَغ وحدكَ لا أريد أن أُلدغ

أنا الآخر، لي زوجة وأطفال صغار، ولا أكون أين تكون الأفعى، لا أريد أن أيتّم أولادي أو حتَّى التفكير بذلكَ.

أخرجت ورقة نقديَّة أخرى، ووضعتها أمامه بالطاولة.

-حسنا سأحاول ذلكَ لكن لن يطول بنا الجلوس هناكَ فغالبا، ما يكون المقهى كله عند حضور الزَّعيمِ، من أتباعه، إلا ما ندرَ، قال مستدركا وهو يضع الورقة بجيبه.

-سأكون عندكَ في الثالثة، اترك لي رقم هاتفك.

كتبت رقمه، وسجَّل رقمي عندهُ، ومضى، لكني بقيت بمكاني أفكر بفطيمة، وبما قاله الرجل عن الأفعى وعن الجحر، هل كلما صادفني أن أكون سعيدا إلاَّ وقد بدت لي أفعى ما تريد أن تلتهمني، كم أفعى بشرية بهذا العالم، وكيف أحصن نفسي ضدَّ الأفاعي، أنا الذي كنت ضحيتها دائما، لدغاتها كانت قاسية، أوجعت روحي، قتلتها، حتَّى اللحظة التي رأيت فيها فطيمة وجلست إليها، وجلست لي، ثوانيَ معدودات كانت كالترياق، إذ بدأ السّم فجأة يغادر جسدي، لابدَّ أن أشفى تماما، ولا سبيل إلى ذلكَ إلاَّ هذه الروسية كما ناداها الرَّجل الذي كان هنا قبل قليلٍ، والتي لا يجب

على أحد الاقتراب منها، ومن هالتها، من حارسها، هذا الوحش الذي يخشاه الجميع، أنا لا أخشاه، فعلا، ولا يهمّني، وهذا ما أحس بهِ حقيقةً، لكنَّ ما أخشاه أن يصيبها مكروه، لأني أعرف صنف هذا الزعيم وقد قابلت منه الكثير بالحانات، وحينما كنت صغيرا أبيع السجائر والفول على قارعة الطريق أمام الحانات ومخازن الخمر، رأيت مثله الكثير ولهذا لا يهمني أمره، بل أمرها فقط....فطيمة.

بقيت طوال الظهيرة وما بعدها بالمنزل، أنظر إلى الصورة التي اشتريتها من الكهل في الدكان، صورة أولقا تشيخوفا، كم كانت تشبهها، وتشبه الصورة التي كانت بغرفتها، لازلتُ أرى وجهها الذي شحب حينَ دخلت العجوز وأخبرتها أنَّ الزعيم قادم في طريقه، إنَّه هتلر، لكن حتى هتلر لم تدم له قوته فقد فقدها وبقي حبرا على ورق التاريخ، ترى هل علمَ بنومتي تلكَ في غرفتها الصغيرة، وإن كان كذلكَ فلماذا تغاضى عن الأمر، أم أنَّ هناك شيئا لا أعلمه، أم أنه لم يعلم، لكن هذا مستحيل، لقد قال الرجل في المقهى أنَّ عيونه بكل مكانٍ، ولذلكَ كان عليَّ أن أعرف سبب عدم بلوغه لي، ترى هل أصابها أذى، نخَرتِ الأسئلةُ رأسي حتَّى

أوجعته، وفي المساء توجَّهت وكلّي رغبة في معرفة هذا الزعيم، أو كيف يبدو على الأقل، هذا الذي يخشاه الجميع، ويخبّئ عنده سرا من أسرار سعادتي، التي أظنها الكبرى، إنَّه يخبّئ خلاصي ...

هكذا مرَّت السنوات، أعيش وحيدا، وكان الدكتور يوسف عزمي، قد دبَّر لي عملا في مؤسسة الاتصالات، كنت حارس الأمن بها، وكنت أعمل على مرحلتين، مرحلة نهاريَّة، وأخرى ليليَّة، كان عملا لا أحبّه، لكن رغم هذا فقد كان يكفيني الحاجة، وتسديد فواتير الكهرباء والغاز، والأكل والشرب، وخاصة شراء الكتب، وكنت دائم التردد على زنقة سيدي بوعنَّابة والسيّدة، أين يوجد باعة الأرصفة والمتجولين والذين يعرضون ما لذَّ وطاب من الكتب على اختلاف أنواعها وعناوينها، وقد بلغ اهتمامي بهذا في هذه السنوات التي عشت فيها وحيدا، كنت أقرأ بشراهة، أدخل الكتب كأنَّها آخر مرَّة أفعل ذلك بحياتي، وأخرج منها بتجارب تزيد من تجربتي بالحياة عمقا، وتأخذ بي نحو طريق الكتابة إذ كنت أدوّن كما ذكرت في البداية بعض ما أودّ قوله أو بالأحرى أخربش...

لم يترك أبي، أو أمي، شيئا، سوى هذا المنزل، وهذه الذكريات، وهذا الولد، ولدهما، الذي شارف على الجنون، إذ ولد محطَّما منذ البداية، وكان من الصعب جدا تدارك عطبه، بل أظن أنه من المستحيل.

بالمساءات، أغلبها، كنت أدخل الحانات، أجلس إلى طاولاتها، وحيدا معظم الوقت، وبرفقة لا أعرفها أجدني أحيانا أكمل سهرتي، أو أستيقظ في الصباح لأجد مومسا كنت قد نمت معها الليل كلّه ولم يكن هذا إلاَّ نادرا، فلم أكن أفقد وعيي تماما حين أثمل، علمتني الحياة أن أكون يقظا دائما، حتى في حالات سكري المتقدّم، وبعد ذلك صرت لا أثمل إلاَّ وحيدا بالمنزل، كنت أنصت لأغنيات أبي كثيرا، عبد الوهاب كان الأوَّل، عوابدية يأتي بعده في ترتيب أولوياته، وكنت أدخل الألحان كمن يدخل أرضا مدجَّجة بالحيرة، ولم تكن المشاعر مفهومة أبدا، ما بين الفرح الشديد، والحزن القاتم، مزاجيّا إلى الحد الذي انفصمت فيه معالم شخصيَّتي، ولذلك لم أترك تناول أدويتي، رغم أني فكرت بالقضاء عليَّ مرارا وتكرارا، ولن يكون ذلك إلاَّ من خلال التوقف عنها، لكن الدكتور يوسف كان لي بالمرصاد، وكان يحملني مسؤوليَّة أن أعده، ولا يمكن أن أخلف وعدا قطعته، خاصَّة لمثل ذلك الرَّجل الكريم، الذي وجدته في أشدّ حالات يتمي، ووحدتي، حين ذهب الجميع، لكن لمسؤولياته الكثيرة، وطبعا أعذره، كان لا يستطيع زيارتي ولا السّؤال عن حالي

وكنت أحافظ في غيابه على الوعد الذي قطعته له، بأن أحافظ على تناول أدويتي بالوقت المناسب، وأن أبتعد نهائيا عن الكحول....

كان آخر يوم قررت فيه التوقف نهائيا عنه، هو تلك اللحظة التي خرجت فيها من بيت فطيمة، لا لأني تعرضت للضرب، ولا لأنَّ بعض حاجياتي منها ساعة أبي الغالي سرقت ،أبدا ،لكن كأنَّ روحا من روح الله قد أصابني، وأرجعتني إلى الجادَّة ومنذ تلك الحادثة، وأنا متوقف عنه، ولم تمر قطرة كحول واحدة عبر حلقي، ورغم شوقي إليه أحيانا إلاَّ أنيّ كنت أتذكَّر فطيمة، وأنظر إلى الإطار الذي وضعته قبالتي وأنا ممدد بغرفتي، وأنتشي، وأسكر فقط بتلك النظرة، وأعود إلى تلك اللحظات التي جمعتني بها، كانت تكفي نظرتها تلكَ وخجلها الذي احمرَّت له وجنتاها بأن تجعلني أنتشي، وأدخلَ شعورا لم أذقه من قبل هذا أبدا.

في الثالثة إلا عشر دقائق، كنت على باب الجابية، بمدخل السّويقة، اتصلت بإلياس، هكذا أخبرني عن اسمه ونحن نسجّل أرقام هواتفنا، رنَّ الهاتف طويلا حتى تكلمت الرسالة الصوتية.

"إنَّ مراسلكم لا يرد على المكالمة ...."

قطعت الاتّصال، ثمَّ أعدت الكرّة، النَّذل لم يرد على اتّصالي، وفي المرة الثالثة، فعل.

-"ربَّك "أينكَ، إنَّها الثالثة.

-كنت مشغولا قليلا آسف، ستجدني بجانب المقهى لندخل سويَّة.

-أنا قادم.

كانت السّويقة عامرة عن آخرها بالناس، يقتنون أمورا كثيرة، وتعثرت عند باعة المكسرات، كان هناكَ هرج عظيم، وضاقت روحي قليلا، ليس بسبب الهرج على ما أذكر، لكن بسبب ما أنا مقبل عليه، ولا أعلم له نتيجة، ولا حتى خطة أسير بها، كل ما أردته هو معرفة هذا الوحش الذي يلقبونه بالزَّعيم، على الأقل سأتبيَّن من ملامحه بنفسي، لازلت بعد لم أحدّدها.

كان إلياس عند بائع الكتب والمجلات القديمة، جالسا على كرسي بجانبه، حتى وصلت وسَّلمت عليهما.

-أنت مجددا، أهلا بك يا سيدي، وابتسم الرجل الكهل البائع، ثمَّ أردف.

-واش نبيعولك المرة هاذي؟

-لا، لم آت لأشتري شيئا، جئت عند إلياس.

-اااا أنت صديق لإلياس إذا، لماذا لم تقل هذا حين قدمت المرَّة الأولى، على الأقل كنت "نتهلا فيك "أحسن مما فعلت.

-تعرفان بعضكما، قال إلياس.

-تقريبا .... قلت.

ابتسمت لصاحب المحل، وأشرت إلى إلياس بأن نلج المقهى.

-نلتقي لاحقا عمي كمال، قال إلياس للرجل الكهل البائع سأكرم ضيفي، "نقهويه"، وأرجع لك لاحقا.

-واجب، مع السلامة ردَّ الكهل، ابتسمت له ثمَّ غادرناه إلى المقهى الذي كان مقابلا للمحل تماما.

جلسنا إلى الطاولة نفسها التي التقينا بها المرة الأولى، طلبت لي قهوة، وإلياس شرب كوبا من الشَّاي السَّاخن.

-هل هو هنا صاحبنا، قلتُ.

-لا، لم يأت بعدُ.

-ألم تقل أنَّه يكون هنا عند الثالثة والنصف، لقد مرَّ على الوقت الذي ذكرت عشرون دقيقة.

-قلت أنه غالبا ما يأتي بهذا الوقت، اليومَ هل ستلومني لأنَّه لم يأتِ، أتظنني أمنعه بسبب ما، أنت متسرّع، وسريع الغضب.

وما إن أكمل الجملةَ دخل نفر، لم تكن بوجوههم أي أثر للطيبة، كان الشَّر يملأ وجوههم، وكانت نظراتهم تتهم الجميعَ، بلؤم، وقسوة لا متناهيةٍ، نهض بعض من كانوا يجلسون لإحدى الطاولات يلعبون الورق، تاركينه وراءهم، بعد أن أمرهم أحد النَّفر الذينَ دخلوا وكانوا ثلاثة، ثم بعد ذلكَ بقليلٍ دخل رجل، ولم يكن غريبا عني، كان في مثل سني تقريبا، ولم يرني كما رأيتهُ.

-هذا هو صاحبك الذي تبحث عنه، قال إلياس.

-إنَّه بالفعل صاحبي.

ابتسمت لوهلة، واستغرب إلياس، ونهضت من مكاني.

-فوَّاز أيّها النذل، أينَ كنتَ طوال هذه السنوات.

-من؟ بشير، تبا لكَ ماذا تفعل هنا.

احتضنَ أحدنا الآخر، ببعض العنف، صعق لهذا إلياس، ولم ينبس ببنت شفة.

أيها الوغد "توحشتك" قال الزَّعيم، أردف،"ماتسقسيش على صاحبك، ما تسول عليه "؟

-كأنَّنا نعيش في بلدين مختلفين، مرَّ زمن طويلُ، قلتُ.

فوَّاز صديق الطفولة، ذاك الذي لم أره منذ زمنٍ، كبرنا، أنا صرت مشتَّتا، وهو صار وحشا على حسب ما قاله إلياس لي، تظاهر إلياس أنَّه لا يعرفني، وكنتُ على خطاه بهذا، أسايره في لعبته حتَّى لا أسبّب أدنى خطر عليهِ، إذ بدا أنه خائف، ولم أشأ أن أحرجه أكثرَ، ثمَّ بعد أن جلست إلى طاولة فوَّاز بلحظاتٍ، غادر لم يكن فواز أو الزعيم تغير كثيرا، مازال بغلظته، ابيضَّ شعره قليلا، ونحل أيضا، أما ملامح وجهه فبقيت كما كانت. لكن شيئا عميقا من القسوة

بعينيه، اللاَّرحمة إن صحَّ تعبيري، شيء قد تغيَّر داخلهما، وكثير من الأسى والحقد، رغم أنه كان يبتسم إليَّ، إلاَّ أنيّ أدركت هذا جيدا.

-إذا، مرَّ من العمر الكثير، كيف حالك، وكيف حال خالتي زليخة؟

-أنا بخير، خالتك زليخة توفيت منذ زمن.

-يا إلهي، "البركة في راسك "

-"يعيشك"، وأنت كيف أحوال الأهل؟

أنا أهلي جيبي وذراعي، وقهقه، كان معتدا بنفسه إلى أبعد حد ثمَّ ارتسم بعض الحزن على وجهه والشفقة حيال موت أمّي، ذكر أنها كانت طيبة، يعرف جيدا أنها لم تكن كذلك ولا أعرف لماذا قاله...

-يا صديقي القديم، يا صديق الطفولة، اليوم عشاؤك عندي، وسنسهر سويا، يبدو أنه تغير الكثير ولابد لي من معرفته، حتى حالتك تبدو مزرية، عيناك غائرتان، ما هذه السحابة التي بوجهك، إنَّك بالفعل لست على ما يرام، المهم الآن عليك أن تشرب شيئا على حسابي طبعا، وبعدها سنذهب إلى البيت ونتحدث بهذه التفاصيل.

كان الجميع يحاولون إبداء احترامهم لي، انطلاقا من النادل وحتى نظرات الآخرين التي كانت تحوي نوعا من المذلَّة، وحب التَّقرب، أدركت كم كان لفوَّاز هيبة، هيبته التي طوَّر منها إلى أبعد حدّ حتَّى صار هذا الزعيم الذي لا ترفع الأبصار بحضوره، ويحسب له ألف حساب بغيابه.

-إذا لازال سكنك ببلوزداد، بلوزداد وليس "سان جان"، قالها، وضحك، لابد أنَّ ذاكرته قوية جدا حتى يتذكر هذا.

-نعم، بلوزداد يا صديقي، سان جان، لازلت قابعا هناكَ، لن يزحزحني عنه إلاَّ الموت.

—آووه بعيد" الشَّر"، تفاءل أيها الأحمق، حين تسهر ليلا مع الزعيم ستتشبث بالحياة كما لم تفعل من قبل، أعدك بهذا لازال نرجسيا كما كان، واثقا من نفسه حد الغرور، ويبدو أنَّه لازال مندفعا كما كان، لم يتغير شيء إلاَّ تلك النظرات التي حاولت أن أصفها، أنا الذي خبرت العيون جيدا، وأفهم ما تحويه من صدق أو خداع، أو غير ذلكَ مما يمكن أن يكون.

-لازلت تحب أن يُسَمّوا شارعا باسمك؟

-كل المدينة تلهث باسمي، طبعا لازلت بعد لم أستشهد، قال وقهقه

-طوال العمر لك، لا زالت الحياة طويلة أمامك.

-بل لا زلت طويلا أمامها، يلزمها الكثير حتى تتخلَّص مني.

كان يتكلم بصوت صاخب، كأنه في مشاجرة، وكان يقهقه مع أي كلمة يقولها، كان الجميع يتباسمون إثر ضحكته أو يضحكون إذا ضحك، ثمَّ يصمتون بعدها وينتظرون ما سيقوله كنا كالإخوة حين الصغر، لكن ورغم حفاوة عناقنا واستقباله لي إلاَّ أني أحسست أن هوَّة سحيقة بيننا، كان قد عبث بها الزَّمن، وشكَّلتها الأيام التي لم نكن فيها مع بعض، وازددت تأكدا من غرابته حينَ كان بين الفينة والأخرى يتناسى وجودي وهو يهمس بشيء ما لأحد الرجلين اللذين كانا معه، كان لا يقول إلاَّ، "حاضر سيدي "،"أوك زعيم " ولم أدر حقيقة ما كان يهمس له، رغم إحساسي بالهامش الذي تشكل بيننا، ورحت أذكر فطيمة، وتهت في ما تذكرته من خوفها الشَّديد منه، حين سماع اسمه وكان يهم بالقدوم، وكيف كانت تريد إخراجي بسرعةٍ يومها، كأنَّ فيضانا ما قادما، أحسست ببعض

العداوة تجاهه، ولا أعرف تحديدا لماذا، ربما لأنَّه، وهو صديق الطفولة، أتقاطع معه اليوم بنقطة لابدَّ للبقاء فيها لأحدنا ويبدو مع كل ما أحسّه الآن، وما أريده أن يتحقق، ألَّا مجال للمراجعة ..

حاولت التمثيلَ بقولي أني سأغادر، وسألتقيه ربما في يوم آخر، حاولت بذلك اختبار صدقهِ في دعوته للسهر، لكنَّه أمسكني من ذراعي بقوَّة حتَّى آلمني بعض الشي، وكأني خادمه، أو دمية ما، ولم يعجبني تصرفه ذلكَ، وأجلسني بغضب، كنت قد تأكدت من أنَّ تلك الهوة بيننا حقيقيَّة، وأنَّ فوَّاز ذهب إلى حتفه، والآن هو الزعيم من يخاطبني.

-لا أحد يردّ دعوة الزَّعيم إلى العشاء والسَّهر، قال بحدَّة وغضب شديدينِ، ثمَّ ابتسم بعد أن جلست.

أحسست بعض الجنونِ الغامض به، ذلكَ الجنون الذي يسمح لصاحبه بمواصلة الحياة، وإعطاء الأوامر لها، وتتبّعه في كل ما يأمر به، وإن خالَفَته-الحياة-فالويل، أشد الويل لها مما سيحصل لها منه.

-معاذ الله، كنتُ فقط أمازحك، ولا أدري لماذا بيَّنت خوفي، ولا أدري لماذا شعرت بالخوف فجأة لذلك صمتُّ، بينما راح يحملق في هاتفه، ويلعن أحدا ما، لم يرد على مكالمته التي أجراها للتَّوّ.

-بنت القحبة، إنَّها لا ترد ....

كانت الشمس قد غربت، وبدأت تعاليم الليل تفرض نفسها.

-لنخرج الآن يا صديق الطفولة.

-حسنٌ قلت.

وخرجنا من المقهى، الذي أغلق مباشرة بعد أن كنا آخر زبائنه، ومضى فوَّاز، أقصد الزعيم بخطى واثقة نحو الدَّار التي بها فطيمة، ومضيت خلفه، أتبعه، بينما كان يقول كلاما مبعثرا، عن أشياء كثيرة، وبغضب يفعل ذلكَ، أحسست بانقباض ببطني، وبعض الشعور بالخوف، لا يمكنني أن أنكر هذا.

كانت السّويقة مظلمة، ولا أحد بها إلاَّ بعض الخطى القادمة من هنا، ومن هناك، وصوت الزعيم يصرخ وهو يطرق الباب.

-"حلّوا ربّ الباب ".

طردت من العمل كحارس في شركة الاتّصَالات، ولم يكن فعلا يهمّني ذلكَ، فالعمل لم يكن مناسبا جدا، أكره الاحتكاك بالناس، والوصاية خاصَّة، وكنت حينَ أقف بالباب أحس أنّي جلاَّد، وأكره هذا جدا، لا أحبّ أن أكون جلاَّدا، ولا يمكنني بالأصل مواصلة العمل بهذا المكان، خاصَّة مع مدير أحمق كالذي أعمل معه، كنت قد أرديته أرضا بقبضتي إثر نوبة غضب مفاجئة، ولولا تدخل بعض الموظفين لكنت قضيت عليه، ولم أنتظر حتى يتم طردي، فقد بدلت ثيابَ الحراسة المقرفة، ولبست ثيابي، وخرجت إلى العالم حرًّا ودون قيودٍ.

في تلك اللَّيلة عرفتُ فطيمة، وبطريقة ما كانت مرسومة بالأقدار، ولو كنت أعلم أني سأجدها كنت قد ذهبت إلى هناك منذ سنواتٍ عديدة، وربما لم تكن حالي لتصل إلى ما وصلت إليه، إنَّ كل ما كان ينقصني، حضنٌ، أو ابتسامة صادقة، أو قلب يسير إليَّ بحنانٍ، فأمسكه، وأخبّئه بين ضلوعي لأصير بقلبينِ ...

هل كانت مطالبي كبيرة إلى الحد الذي لم تتحقق فيه كل هذه السنوات؟

ها أنا ألوم الله مرَّة أخرى، وأخجل من أن أفعل ذلكَ في كل مرة تأتيني هذه الوساوس والتَّصَوّرات، كنت أهرب منها بالدواء الذي يصفه لي الدكتور عزمي، وما أكثره، فنوع للوساوس، ونوع مضاد للاكتئاب، وآخر كي لا أنتحر، وآخر للغضب والنوبات وهو الذي لم أتناوله يومها حين ضربت المدير القذر ورميته أرضا، وأظن أنه أحسنُ ما فعلت ولم أكن نادما أبدا.

هكذا كنت أهرب، بالنَّبيذ والأدوية من أسئلتي، وأحاول أن أغلبها، قبل أن تتمكن مني، خاصَّة تلك التي تتعلق بالماضي، بأمي، بالسَّاسي الكلب، وبما لم تمنحني إيَّاه من حب، وبحسرتي الكبيرة عما كان يمكنها أن تمنحه لكي يتجنب العالم منفصِما مثلي، ومتهورا لا مبالي بحياته التي لم تعد لها قيمة، قبل فطيمة.

ليلتها ذهبت إلى أحد باعة الشَّراب، تحت قنطرة سيدي راشد، وكان يفتح شبه دكانه ليلا، ورغم أنَّ الثَّمن كان زيادة عن أن أشتريه من المنطقة الصناعية إلاَّ أنّي لم أكن أرغب في الذَّهاب إلى هناك واستعادة ذاكرة مرهقة، ولم أشأ أن أرهق نفسي.

كنت قد شربت حتَّى ثملت ليلتها، وكنت أتوسَّد ركنا عريضا من أركان الجسر، ثمَّ وبطريقة ما وجدتني أسير، وبسبب الثمالة لم أعرف إلى أين، وكما ذكرت فأنا لا أفقد توازني حين أثمل إلاَّ نادرا، لكنَّ إرهاقي الذي كنت به قد اختلط و قارورة النبيذ التي احتسيتها وحيدا، وسرت في دروب السّويقة الضيّقة، كانت مخيفة ليلا، ولا يدخلها إلاَّ أصحابها، ولم أكن أحسب أنّي سأتعرَّض للضرب والنَّهب، لأنّي كنت واثقا من أني أعرف الكثيرين ممن يجوبون المكان ليلا من الثملين، والمنهارين، وأولئك الذين لا مأوى لهم، وبعض المومسات اللَّائي كنَّ في الطريق، يعرفنني أيضا ..

فجأة، لم أُفق إلاَّ على ضرب مبرح وأنا بالأرضِ، كنت حينها أمام بيتِ فطيمة، إنَّه لا يليق بها حتما أن تسكن ماخورا، وجهها الذي رأيته في تلك الصبيحة لازال يرافقني حتَّى اللحظة ويدفعني لارتكاب الحماقات لا يشي بذلكَ، إنها امرأة أخرى حتما..

أنقذتني فطيمة، أنقذت حياتي كان يمكن أن أموت لو طعنني أحدهم، وأنقذت خراب روحي، إذ ظننت لوهلة ألاَّ شيء يستحق الحياةَ، وإذا لقيايَ بها تعكس قناعاتي، وتجعلني رجلا آخر، رجلا

غير الذي كنت وأردت فعلاً أن أستعيدني، بعد أن فقدتني لسنوات، ولم أعرف كيف، ها أنا أعود من جديدٍ.

أنقذ أبي من طعنة سكين يوما معطفه الجلدي، فكان يذكره بوفاء، فكيف لا أذكر فطيمة بالوفاء وقد أنقذت روحي من التعفن وجسدي من طعنةٍ كان يمكن أن تكون..

في تلك الأيام التي كانت فطيمة ترتاد ذاكرتي كنت قد قررت التوقف عن الشّرب، وفي إحدى الصَّباحات استيقظت على أذان الفجر، وكانت لحظة بكيت فيها، إنَّه المؤذن نفسه الذي سمعته بنفس المكان وعلى نفس السرير منذ سنواتٍ، استغرقت بسماع صوته النديّ جدا، كان شيء ما بروحي قد استيقظ، وفجأة أردت أن أصلي لله، كانت الأصوات داخلي متفقة، فأسرعت إلى الحمَّام، أخذت حماما سريعا وتوضَّأت وخرجت على أمل الصَّلاة.

كان بلوزداد خاليا تماما، وحيدا تماما، مثلي، ورحت أسير نحو مسجد الاستقلال الذي لا يبعد إلاَّ بضع خطوات، كان بالكدية وكان المسجد كنيسة قديمة قد حوّلت مباشرة بعد خروج الاستعمار الفرنسي إلى مسجد، هذا ما كنت أعلمه عنه، ولم تكن معلوماتي عن

المساجد ودور العبادة كافية، لكن على الأقلّ، أعرف هذا المسجد خاصَّة، كان بعض النَّاس على الطريق يمشون يتجهون إلى المسجد على ما أظنّ أيضا.

دخلت المسجد، ولم يكن ممتلئ تماما، دخلت أرضا لم أدخلها قبل اليومِ، إلاَّ عندما كنت صغيرا، بعد أن هربت من حلقة تحفيظ القرآن أنا وفوَّاز، ولم نعد بعد ذلكَ إليها، ولم يكن أحد من أهلنا يبالي بذلكَ طبعا، الجميع كان منشغلا عنَّا، وكنَّا بطبعنا منشغلين عن الجميعِ ...

كانت لحظة صامتة، عميقة، هادئة، كأنَّ روحا اجتاحت روحي، وأسكنت هلعها، وضمَّدت جراحها، وأنا أدخلُ هذا الصَّرح، وهذا العالم الآخر، لابدَّ أن الجميع سعيد هنا، كيف لم أنتبه للصلاة من قبل، وكيف تجرَّأت على لوم الله، كان يناديني طوال الوقت، لكنني كنت أدّعي أني لا أسمع نداءاته المتواليةَ.

يا الله لن ألومك لأني أحبك، وفعلا كنت قد أحسست بذلكَ لأوَّل مرَّة بحياتي، ولأوَّل مرَّة أكف عن أسئلة كثيرة.

كان البعض يمسك المصحف يستند إلى أركان المسجد، أو جدرانه بينما كان البعض الأخر يصلّ ، مرَّ أحدهم من أمامي ووجهه يقطر بالماء، والنور على حد سواء، وأنا غارق في دهشتي، قام المؤذن بإقام الصلاة، وصليت لأوَّل مرَّة، وأقسمت ألاَّ أعود لما كنت عليهِ، وأن أكتفي عن النَّبيذ، وأصمد أمام جراحي، لتوّي اكتشفت ملاذا للضائعين أمثالي، ورغم أنَّ بعض نظرات الذين يعرفونني كانت قاسية، إلاَّ أنَّني لم أبال، وكنت أتردَّد بين َالفينة والأخرى على المسجد، أقرأ القرآن، أو أصلي، أو أرفع يدي إلى السَّماء، أدعو الله بما أتمناه، وحتى هناك لم تفارق فطيمة دعائي، أنا الذي لم أمكث معها إلاَّ بضع لحظات كانت قد غيرت تاريخ الحكاية، حكايتي، وزينتها بهذا الإيمان المفاجئ، وهذا الفرح الغامر الذي لم أكن أحس به إلا وأنا أدخل المسجد.

فتحت العجوز الباب.

-عشر ساعات كي تفتحوا الباب؟ قال الزعيم يصرخ.

-المعذرة كنت منشغلة بعض الشيء، ردَّت العجوز.

كان بيني وبينها الزعيم فلم ترني جيّدا، وما إن دخلت بهو الدَّار ومررت بالرواق الضيق المظلم حتَّى رأتني بوضوحٍ، وتظاهرت أنَّها لم ترني من قبل وفعلت مثلها.

-أين هي فطيمة اللَّعينة، ولماذا لم تردّ على اتصالي مساء، قال الزعيم.

-ربما تضع هاتفها على الصَّامت، تعرف، أنَّها مخبولة يا زعيم اعذرها ردَّت العجوز.

-عندي ضيف عزيز، جهّزي العشاء، وسنحتسي نبيذا، جهزي كلَّ شيء، ونادي على فطيمة بسرعة.

كنت حتى اللحظة صامتا لم أقل حرفا واحدا، وكنت فقط أنتظر إطلالة فطيمة، لابدَّ أنَّ العجوز ستخبرها أنَّ الرَّجل الذي بات بغرفتها منذ أسابيع صاحب الزعيم، ولا أعرف كيف ستكون ردة فعلها على ذلك.

-مرحبا بك، تفضلَّ البيت بيتك، قال الزعيم.

-"يعيشك" صديق الطفولة، رددتُ.

دخلنا غرفة، كانت أكبر من غرفة فطيمة بمرتين، وكانت مجهزة بأريكة فاخرة، وطاولة جميلة، وشاشة تلفاز من النوع الجديد الجيد، كانت غرفة للضيوف على ما تبدو.

جلس الزعيم، وجلستُ.

-إذا ماذا كنت تفعل طوال هذه الفترة، منذ أن انقطعت أخبارنا.

-حدثته بما جرى بالتفاصيل، التي لم يتوان لحظة واحدة بالسؤال عنها.

-السَّاسي ولد القحبة، فليحمد الله على موته وإلاَّ كنت قد أريتك فيه ما هو أشد من الموتِ، قال الزعيم.

طرق باب الغرفة طرقا خفيفا.

-ادخل، قال الزَّعيم.

دخلت، إنَّها هي، هذه التي قلبت حياتي رأسا على عقب، كان وجهها شاحبا حين رأتني، سوى قطرات دم انتشرت هنا وهناك عليه، ولم أستطع التوقف عن النَّظر إليها، كانت فاتنة، وأحسست

لحظتها بضربات قلبي تتسع، ويتسع فرح غريب لم أشعر به من قبل وأنا أراها.

-لماذا لا تردين على اتصالي أيتها القحبة اللعينة، قال الزعيم.

كنت قد غضبت غضبا مريرا، ولم أستطع الصَّمت.

-ربَّما لم تسمع، أو كانت منشغلة، ثم إنَّ العجوز قالت لكَ أنَّ هاتفها على الصامت يا فوَّاز، بالراحة على الفتاة.

لم أعرف كيف خرجت الكلمات من فمي، ليتها لم تخرج.

نظر إليَّ فوَّاز نظرة استغراب.

-والله جميل، ضيفي يحاسبني كيف أكلم "قحابي"، لا تتدخل يا بشير لا أسمح لأحد بأن يتدخل، ولولا أنَّكَ صديق الطفولة البائسة كما تعلم، لكان تعاملي معك بطريقة أخرى.

-أنا أحاول الإصلاح يا صديقي، لا تغضب.

-لا تحاول شيئا، هذا أمر....

رنَّ هاتفه فجأة، توقف عن الصراخ، نظر إلى كلينا.

-لي حساب معك لاحقا، قال الزعيم لفطيمة، لم ترد بكلمة.

وخرج أمام الغرفة يتحدَّث بالهاتف.

-ماذا تفعل هنا، أيّها الأحمق، قالت فطيمة.

-أتيت لأراك.

-أنت مجنون، ثمَّ لماذا لم تخبرني أنَّك تعرف هذا الوغد ابن القحبة.

حكاية طويلة، قلت، اتصلي بي أرجوك.

دخل الزَّعيم بعد أن أنهى مكالمته، وتوقفنا فجأة عن الكلام، وتظاهرنا أنَّ أحدنا لم يكن يعرف الآخر.

-ما زلتِ هنا، ماذا تفعلينَ، هيا غادري، لي كلام آخر معك لاحقا، ملأ صراخه الدار التي حلَّ صمت رهيب بها ما إن دخل، حتَّى الوشوشات لم تكن تسمعُ، كان صوته فقط هو الذي يسمع ولا صوت آخر.

دخلت بعد قليلٍ امرأة يبدو أنها إحدى فتيات الدار، وضعت العشاء، وأخرى وضعت المشروب، وانصرفا مباشرة.

أنهينا العشاء، وكنا نتحدَّث بشكل مستمرٍّ، عن أيام الصّغر والماضي، كان يتحدث عنها بحنينٍ، وعن كيف أني كنت أبدأ الشّجارات وينهيها هو بقبضته التي وصفها أنَّها ازدادت قوَّة.

لم يخبرني كثيرا عن حياته رغم محاولاتي الاستفسار عنها، كان متكتما، على عكسي أنا الذي فتحت قلبي عن آخره وأخبرته بكل شيءٍ، وكنت رغم تغيّره أجد فيه مواساة غريبة، وأنا أسرد التفاصيل وماذا حدث حين لم نعد نلتقي بعد أن انتقل إلى العيش في مكان آخر من المدينة.

أنهينا العشاء، نادى الزعيم العجوز القبيحة، تمتم في أذنها.

حاضر، قالت وانصرفت.

-لك مفاجأة يا صديق الطفولة، مفاجأة كما وعدتك، سأبهج روحك هذه الليلة.

دخلت فطيمة بعد قليلٍ بكامل زينتها، كانت ملاكاً، كانت فراشةً، ولم أستطع إزاحة بصري عنها مرَّة أخرى، لكنَّ غيمة حزن بعينيها، تمرّ على وجهها وتقف هناك دون أن تمررها الريح إلى الجانب الآخر، ليتني أستطيع أن أزيلها، قلت بنفسي.

-جميلة، صح؟ قال الزعيم.

-الزعيم يعرف كيف يختار جيّدا، قلت بابتسامة مصطنعة، والغضب والغيرة ينخران عقلي نخرا وددت لو أكسر إحدى قناني

النبيذ على رأسه، وأسرقها منه، وأحملها، وأهرب بعيدا، حيث لن يجدني أبدا، ورحت في خيالاتي أسبحُ، حتَّى دخلت إحدى فتيات الدَّار، تبتسم بخبث، ترتدي روب نوم شفاف جدا، كان جسدها مثيرا، وصدرها بارزا، جلست إلى جانبي.

-ما رأيك بها يا صديق الطفولة؟

-وهل يقال الرَّأي بالقمر، القمر قمر مهما حاولنا أن نصفه، أو نجامله فسيبقى كذلك، ولن تبلغه اللغة.

-أصبحت شاعرا إذا، وقهقه، صبّي لنا "خلينا نزهاو"، أضاف يأمر المومس التي أتت وجلست إلى جنبي.

صبّت لنا، اعتذرت عن الشرب، مبررا ذلك بمغص في معدتي، واستنكر ذلكَ لكنَّه لم يبالي كثيرا.

أشعلت المومس الموسيقى، وشربوا جميعا، حتَّى فطيمة فعلت، وفجأة نهضت المومس ونزعت رداءها الشَّفاف، بعد أن وضعت إحدى أغاني الرَّاي على قارئ الأسطوانات، وباشرت الرَّقص، كانت تتقن ذلك بطريقة رهيبة، لكني وطوال السَّهرة، لم يكن يهمّني شيء إلاَّ فطيمة التي كان يقبّلها بقرف، ويقرّبها منه، وكلما ثمل أكثر

كلما تمادى أكثر بذلكَ، وكنت أبتسم، أتظاهر له بأني سعيد بهذه الجلسة، رغم ما اجتاحني من مشاعر الغضب والغيرة، وكانت المومس تنحني إليَّ وصدرها شبه العاري يلامس وجهي، وهي ترقص، بينما كنت أختلس النَّظر إلى فطيمة التي لم تكن سعيدة بما يفعله هذا الوحش، هذا الحيوان الذي لا أعرفه، كنت أعرف فوَّاز أمَّا هذا فرجل آخر حتما.

شارفت السَّاعة الثَّالثة صباحا، كانوا جميعا في قمَّة السكر، حتى فطيمة، ورأيت دمعة خافتة تسيح على خدها، وكانت تحرقني أيَّما حريق.

هممت بالمغادرة.

-ستذهب، قال الحيوان، "اتهلاَّ في روحك"، سنعيدها مرة أخرى.

-بالتأكيد، قلت، ومضيت في طريقي إلى البيت، طبعا إلى بلوزداد.00

أحيانا لا تعرف ماذا تخبّئه لك الأقدار، وفي كل سعادة كومة من الحزن والتعاسة، تحيط بها وتهيلها، وتقف حائرا كيف تفرق هذه عن الأخرى، إنَّك تقف حائرا فعلا.

اييييه يا فطيمة.

حين وصلت بلوزداد، كان الفجر قد لاح، وأذّن المؤذن للصَّلاة، فرأيت أن أصلي قبل أن أدخل الشّقة، وكذلك فعلت، صلَّيت مع الجماعة، ثمَّ دخلت في عزلة، أسأل أسئلة كثيرة، عن الزَّمن، النّاس وكَيْف يتغيَّرون من خلاله، عني، عن ماضيَّ، عن حاضري، عن أمي وأبي، جدَّتي، وفوَّاز ثمَّ فطيمة، وعن كل هذا التعب الذي أشعر بهِ، لا أقصد الجسدي فقط، بل حتى النفسيَّ، وتملكتني رقَّة غريبة وأنا أحسّ أني سامحت أمي والسَّاسي، وسامحت الجميع، حتى أني دعوت الله لهم بالرَّحمة ولي بالهداية، ولجميع الناس، وحتى المومس التي رقصت اللَّيل كلَّه، وفطيمة وفواز والجميع، وأحببت أن أصلي ركعتين قبل أن أغادر المسجد إلى منزلي، وكذلك فعلت، ولأنّي لم أنم الليلة كلها، كانت عيناي قد احمرَّتا حتَّى تبيَّنت العروق ولاحظت ذلك على المرآة، وزرقة بدأت بالظهور تحتهما ،خاصَّة وأني

لم أشرب كحولا منذ مدَّة، وسَرَتْ رعشة بيدي، تناولت أدويتي التي غفلت عنها ليلة البارحة، وحدَّقت قليلا في صورة الرّوسية أولقا تشيحوفا، وتذكرت ما رواه لي البائع، تبيَّن لي أنها لازالت حيَّة وأنَّ هتلر لازال على وجه الحياة، وعليها وعلى أمل أن تتصل فطيمة نمت حتَّى استيقظت بعد الظهر بوقت متأخر قليلا، أخذت هاتفي، ووجدت أربعة اتصالات، ثلاثة من أحد الذين كانوا يعملون معي بشركة الاتصالات، وقد كنا يستلطف أحدنا الآخر، وتصاحبنا قليلا، وقدرت أنه يريد أن يسأل عني وعن أخباري، ورقم آخر خاص، لا يظهر، فقدَّرت أنَّه لفطيمة، فلعنت اللَّحظة التي لم أسمع رنينه حين كنت غائبا عن العالم بنومة ثقيلة.

حاولت النهوض من مكاني، لأغسل وجهي، وربما بحثت في الثلاجة عن شيء لآكله لأنّي كنت جائعا، وحين اقتربت من الحمَّام رنَّ الهاتف مجددا، فسارعت إليه، وكدت أسقط حينَ تعثرت بحذائي الذي كان مرميا بجانب السَّرير، وحملت الهاتف، رددت

-ألو ...ألو

كنت أسمع أنفاس متقطعة، وكنت متأكدا أنها هي.

-ألو ... فطيمة؟

-كيف عرفتني؟، قالت.

-وكيف لا أعرفك؟، قلت بنفسي.

كنتُ كأنَّ الدّنيا تحلق بعيدا، وكنت أحلق فيها، وأنا أسمع صوتها الشَّفاف الذي أنعش لحظتي تلكَ، إنني لا أستطيع أن أصف ما شعرت به، كل ما يمكنني قوله أنَّ ضربات قلبي كانت في تسارع، وتلعثم لساني عن الرَّد، إذ كيف أرد وماذا أقول؟

-أنت فطيمة صح؟، عرفت أنَّك ستتصلينَ.

-حدسك في صحة جيدة.

-أحيانا نعم، كيف حالك؟

-لست بخير، لماذا لم تخبرني أنَّه صاحبكَ، أم أنَّك دبَّرت معه خطَّة ما، تجعله يهينني، ويفعل ما فعل.

-أقسم أن كلَّ شيء حدث صدفة، وفي طريقي للبحث عنك، عن أخبارك، تسارع كل شيء، حتى أنا لم أصدق أي صدفة كانت، وأي قدر هذا الذي جمعني بك بهذه الطريقة مرة أخرى؟

ولماذا كنت تبحث عني، المفروض أني ساعدتك، فلماذا خنت من ساعدك، كلكم متشابهون هل تعرف ذلك، ولا تهمّني لا أنت، ولا ابن العاهرة صديقك الزعيم المشؤوم.

تملكني خوف رهيب مما تظنه فطيمة بي، أنا الذي لطالما انتظرت لحظة اتصالها، ولم أتخيَّلها أبدا بهذه القسوة، وفجأة انقلبت إلى حفرة وظلام واسود العالم من حولي، ولعنت الزعيم، والماضي والحاضر ونفسي.

-فطيمة ...أقسم أني لم أكن أعرف شيئا، كل ما حدث كان صدفة، أقسم لك بتراب أبي وبالرَّب الغالي أني لم أكن أعرف شيئا، هل يمكننا أن نلتقي لأبيّن موقفي على الأقل، ثمَّ أنا شديد الاهتمام بك

لا أعلم كيف قلت ذلكَ، وكيف خرجت الكلمة من فمي، لكني فعلا كنت مهتما بها إلى أقصى الحدود وكانت اللَّيالي كلها بعد تلك الصبيحة، والصباحات كلها اسمها فطيمة، هذا الاسم الذي حفر بذاكرتي عميقا، ولحظاتي الثكلى، ويتمي الفادح، وكان بلسما

لكل هذا، يداويه لكنَّ بجرعة لا تسمح لي بالتماثل للشفاء لذلك كان عليَّ أن أحوز جرعات أكثرَ وأكثر لأشفى.

بقيت صامتة لوهلة، كانت تفكر، أحس أنَّها بدأت تصدقني.

-هل عليَّ أن أصدقك، وإن لم أفعل؟ قالت.

-لابد أن نلتقي، قلت، سأشرح لك كلَّ شيءٍ.

-لا أعرف، إنَّ التقاءنا شبه مستحيلٍ، سيقتلني ابن العاهرة، أظن أنه قادم سأتصل بك لاحقا.

أقفلت الخطَّ، ولم أجرؤ على خفض الهاتف عن أذني وبقيت معلقا على تلك الحالة برهة من الزَّمن، ثمَّ جلست على سريري أفكر، وأعيد ما دار بيننا من حديث، وساورتني رغبة عميقة بالذهاب إليها، إلى الزلايقة بالسويقة، لكن ليس الأمر بهذه السهولة أبدا، كان الأمر معقدا لأبعد الحدود.

ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، كان يرددها أبي عليَّ دائما حينَ لا أستطيع بلوغ أمر، أو الحصول عليه، وكان يخبرني بذلكَ حين يتكلَّم عن الصيد والبحر، أو حتى عن أمور الحياة المختلفة، رحم الله ترابك يا أبي، إنَّه الأمر الوحيد الذي أحببته بعدكَ، فإما أن أدركه، أو

أن أدركه، ولا أظنّ أن لحياتي قيمة بدونه حتى أتنازل، ويمكنني أن أقدمها قربانا لسعادتي، أنا متأكد أنَّها لن تكونَ إلا بها، فطيمة، هذه السجينة التي عليَّ تحريرها من صديقي القديم، الذي أصبح، أظن أنَّه، من ألد أعدائي.

إنَّه من الماضي، هذا الذي أهرب منه دائما، تقرر الأقدار أني بالنهاية لابد عليَّ أن أواجهه، كي أحصل على قسط السعادة التي أستحق، والتي لاحت لي في أقصى لحظات ضياعي لتزرع الأمل به، وتسقيه ولابد أن أحافظ عليه، لابد لهذا الأمل أن يكبر، ويثمر، وإذا غفلت عنه فإنَّه سيذبل ويموت.

حاولت الاتصال بإلياس، كنت أريد لقاءه، والاستفسار عن بعض الطرق التي يمكنني من خلالها لقيا فطيمة، ولربما تَمَكَّن من مساعدتي، فهو على الأقل قد يعرف عيونَ الزعيم، وربما وجدنا معا طريقا لتَخَطيها، أو إغماضها على الأقل، حتى أتمكن من رؤيتها، لكنَّه لم يرد على اتصالي، وقدرت أنَّه خائف لأني صديق الزعيم، وقد انسحب مباشرة بعد أن شاهد كيف كان لقاؤنا حميما، كان رجلا

جبانا، وهذا ما قدَّرته من اللحظة الأولى، ولم أكن لأستغرب هذا، وكان يريد ثمنا لكل شيءٍ.

بقيت المساء كله أنتظر اتصال فطيمة ولم أستطع الكفَّ عن الانتظار، أو التوقّف عن التفكير بالأمر، حاولت قراءة رواية ما، كانت الغريب لكامي على ما أذكر، أو ربما رواية أخرى، لكني توقفت عند الأسطر الأولى إذ يذكر موت أمه، ولا أريد أن أتذكّر هذا الآن، بل لا أريد أن أتذكر كل ما يتعلق بها، حاولت إشغال نفسي بمشاهدة التلفاز، لكني سرعان ما أطفأته، وأشعلت سيجارة، ورحت أجوب الغرفة ذهابا وإيابا أنتظر اتصالها.

ماذا لو لم تتصل إلا بعد أسبوع؟

ماذا لو كان قد أمسكها تتحدث إليَّ، أو سمعها؟

ماذا، ماذا، ماذا؟

تسارعت الأسئلة إلى رأسي، وكنت ألتهم السجائر التهاماً ولم أستطع أن أفعل شيئا، وأظن أن ضغطي ارتفع، وانتابتني نوبة غضب، تناولت أكبر قدر من المهدئات ولم أهدأ، ثمَّ فتحت النافذة ورحت أطل على بلوزداد، وكيف كان يمتد الشارع على نفسه

وداخلي، قصدت المطبخ بعد ذلك، حضرت قهوة، وأشعلت سيجارة أخرى وبقيت هناكَ وحيدا، أدخن وأفكر وأحتسي القهوة، سأموت إن لم تتصل مرة أخرى، ولن أصبر على عدم اتصالها، لذلك ارتديت ملابسي، وقررت الذهاب إليها بنفسي وليكن ما يكن، فالموت لا يخيفني، ولا الزعيم يخيفني، كل ما يخيفني أن لا أتواصل معها مجددا.

وأنا أفتح الباب وأهمّ بالمغادرة، وقبيل أن أغلقه تماما، رنَّ الهاتف، أرجو أن تكون هي، قلت بنفسي، رجعت إلى الخلف وأقفلت الباب

-ألو ...

-اسمعني جيدا، سيكون بالعاصمة لمدة ثلاثة أيام، أكثر ربما قليلا، لا مقاهي، ولا ساحات، ولا أيّ مكانٍ ، لابدَّ أن يكون لقاؤنا في مكان ما بعيدا عن الأعين، فأعينه" ابن العاهرة" بكل مكانٍ، أنت تدرك هذا، فهو صديقك على كل حال، قالت هذه الجملة الأخيرة بسخرية، ولم أشأ أن أعلق عليها طبعا، كان كل ما يهمّني قدومها، ثمَّ سأبيّن موقفي بعده بكل بساطة.

كانت عيناي، وكأنَّهما أرادتا أن تخرجا بعض الدَّمع، دمع الفرح، وسرت قشعريرة بجسدي، ولم أصدق ما أسمع ...

-طيب طيب، كما تشائين، كل الحق معك، سيكون لقاؤنا بمنزلي، أنت موافقة؟

-أين يقع تحديدا؟

-بلوزداد، "سان جان" أقصد، وصفت لها العمارة، والطابق، وكل شيء.

-حسنٌ سيغادر هذه الليلة، وسألتقيكَ بها، لا أدري تقريبا الوقت، لكن سأتصل بكَ لأعلمك بذلكَ، اتفقنا؟

-طبعا، أنتظر اتصالك، وقدومك.

قطعت الاتصال مباشرة.

وضّبت المنزل جيدا، وضعت كل شيء بمكانه، رتبت كل زاوية كما يليق، ورششت رذاذ عطر المنزل بكل زاوية، حتَّى المرحاض والحَمَّام جعلتهما يلمعان، لم أدخّن إلا عبر النافذة حتى لا أتركَ أي أثر لأي رائحة قد تزعجها، أردت من الجوّ أن يكون مناسبا للقاء كهذا، إنَّها بلسم الجرح، وعلاجه، إنَّها المرحلة القادمة التي أُهيّئ لها بكلّ ما أوتيت من عزم، وما أحبه لابد أن أدركه يا أبي، وهنا فقط أخالفك الرَّأي، فإما أن أفوز، أو أفوز ولا مجال لغير هذا بكل تأكيد.

كنت سعيدا جدا، أخذت حمَّاما ساخنا، وكنت حائرا ما سألبس لاستقبالها، هل أستقبلها بلباس منزل عادي، ربما بذلة رياضيَّة

للعطل الأسبوعية التي كنت ألبسها، أو لباسا رسميا، ليست لي بذل ولا أربطة عنق، ولم أستعملها يوما بحياتي، لذلك اخترت ملابسي، أجملها، وكانت عاديَّة بسيطة، لكنها أجمل ما عندي، وجلست على النَّافذة أرقب نجمة بالسماء بعيدا، كان اللَّيل قد غطَّى الأرجاء، وماتت الحركة ببلوزداد، بلوزداد يرقد باكرا، إلاَّ من بعض ساكنيه، أو ساكنيه القدماء الذين يأتون إليه بكل ليلة، ليلعبوا الدومينو، أو يتسامرون حول كرة القدم، أو يشربون التَّاي الصَّحراوي، عند ذلك التيميموني الذي صار له أعوامُ به إذ اكترى له محلا صغيرا يبيت بهِ، ومكانا تحتَ شجرة لينصب تحتها طاولته وتايه، وبعض المكسرات، وكنت وأنا أنظر إليه وإلى زبائنه الذين يشترون منه، حياتي الماضية، بالمدينة الصناعيَّة حين كنت أبيع الفول، والسَّجائر، ولمّا لم أكن متفرغا لذاكرة بائسة كهذه، رفعت رأسي إلى السَّماء تجاه النجمة وفجأة رأيت وجه فطيمة، بجماله الملائكي، براءته، حزنه، وشجونه العميق، ثمَّ فجأة تلاشى بعد أن استبدله وجه فوَّاز وهو يحاول تقبيله بقذارة.

انسحبت من النافذة التي كنت أطل عليها، وقصدت المطبخَ كنت قد جهزت الطاولةَ كما يجب، وكما يليق بسعادتي التي ستحل بعد عمر إلى هنا، وزينتها بشمعتين، ولم أكن رومنسيا بحياتي، ولا أعرف من أين جاءتني هذه الرّومنسية فجأة، وفكرت أنَّها قد تكون من تلك الكتب التي قرأت، الأدب لا يتركك وحيدا بمثل هذه اللحظات، إنَّه يخرج لك من حيث لا تتوقعه، ولذلك أحبه، ورغم أنَّه مأساة ككل ما وقعته منذ الصفحة الأولى، إلا أنني لازلت بأرضه، ولا يمكن أن أغادرها، إنَّه ببساطة سحره الغريب العجيب.

صرت أحبّ الله أكثر، بعد أن قرّرت فطيمة أن نلتقي، وندمت على كلّ اللوم الذي كلته له، وطلبت منه المسامحة، ولا شكَّ أنَّه سامحني، وابتسم لي، وسمع تلك الصَّلوات التي كنت أتلوها ببيته، وبخلواتي المختلفة، شكرا لك يا الله لأنَّك أسكتَّ أسئلتي القاتلة، وبدَّلتها بفطيمة.

صارت الساعة الحادية عشر والنصف ليلا لا زالت بعد لم تأتِ، ولم تتصل، وليس معي رقمها كي أتصل بها، فقد كانت دائمة الاتصال برقم مجهول لا يمكن الاتصال إلاَّ من طرف واحد، طرفها

وبقيت أنتظر وأنتظر، حتى مللت ذلكَ، دخلت غرفتي، وتمدَّدت على فراشي، وبينا كنت متكئا، رنَّ الهاتف.

-أنا بسيارة أجرة بالقرب من الفيروندو "سوق بطو عبد الله "

-سأنزل حالا لأستقبلك.

-لا، لا تفعل، نسيتَ ماذا أخبرتك عن العيون، وكان يبدو أنها لا تأخذ راحتها لأنَّ السَّائق يسمع محاورتنا.

-لا عليك، قلت، أخبريه أن يوقف السيارة بالقرب من كشكِ بيع الأزهار.

-بجانب كشك الأزهار لو سمحت، سمعتها بالهاتف تقول للسائق

بتلك اللَّحظة كنت أُطل من نافذتي، من وراء الستارة، كي لا أثير أدنى شكٍّ، نَزَلَتْ فطيمة والهاتف بيدها، كانت ترتدي جلبابا أفغانيا، وقفازات كذلكَ، بالتأكيد لقد أخذت بجميع الأسباب التي

تبعد عنها الشكوكَ، وعبر الهاتف وجَّهتها، حتَّى ما إن وصلتْ إلى الطَّابق، كان الباب شبه مفتوح، وبعد أن تأكدت ألاَّ أحد يراها، دخلت، وأغلقت الباب بسرعة، ثمَّ التَفَتت إليَّ بعد أن عرَّت عن وجهها، وأنفاسها لاتزال متواصلة جرَّاء تعب السلالم التي صعدتها بسرعة، وبقينا يحدّق أحدنا بالآخر، دون أن يقول شيئا.

مرَّت بضع ثوانيَ على هذا الحال وفجأة، ضحكت، وتزايدَ ضحكي ولم أستطع أن أتوقَّف، كانَ وجهها يحمرّ إذ أفعل ذلكَ، وإشارات الغضب بادية عليها.

-توقف، لماذا تضحك، هل فيَّ ما يضحك؟

-بالعكس، بل فيكِ ما يخيف، ثمَّ ضحكت مرَّة أخرى، واشتدَّ غضبها، كانت تزداد جمالا كلما غضبت.

-يبدو أنَّك ستفجرين المبنى بمن فيه، لباسك هذا يوحي بالكثير من الأفكار الخطيرة.

-ممم هكذا إذا، ومنذ متى صار لباس المرء معبرا عن أفكاره، ثمَّ أنا لبست هكذا، كي ألغي الشبهات ولا أثير الريبة، تعرف جيدا،

أنَّ عيون الكلب ابن العاهرة بكل مكانٍ ويمكن أن يتفطَّن لهذا، ولابدَّ أنَّه سيفعل ما لا يحمد عقباه.

-يبدو أنَّك تبغضينه كثيرا، فلم تسمّه يوما باسمه، لكنك دائما تحاولين إذلاله.

-هذا لا شيء أمام إذلاله لي، السَّاديّ الحقير.

هل ستتركني واقفة هنا إلى الأبد، ألن تدعوني للدخول، أم عليَّ المغادرة، أردفت فطيمة-

اووووه، هذا كثير عليَّ، أريد أن أغير هذه الخيمة التي تخيفك، على الأقل كي يذهب ظنك بأني سأفجر العمارة أو شيئا كهذا، قالت ذلك وابتسمت، وكنت أبتسم لابتسامتها، وأغرق بها بعيدا، أتيه عن كل شيء.

-أنت معي ؟؟؟ أكلمك.

-أوك أوك، هذه غرفتي، أدخلي وغيري ملابسك، أنتظرك.

كنت بالرواق، أنتظرها، لأوَّل مرَّة منذ أبي وبذاكرتي كلها يدخل الفرح إلى هذا البيتِ، وأحسسته عامرا بكل شيء كان قد فرغ منه من قبل، عامرا بالإنسانية، هذه التي أفتقدها، عامرا بالإيمان، إذ لابدَّ

أنَّ الله كان يعد لي كل هذا سابقا، كم كنت غبيا حين لمته مرات كثيرة، كنت أسعد رجل بالعالم فقط، لأنَّ المرأة التي أحبّ بغرفتي، تبدل ثيابها، وستظهر بعد قليلٍ، ولم أشأ أن أعكر صفو لحظتي بتذكر فواز الذي لاح فجأة، فنفيته منها –اللحظة –وبقيت أنتظرها.

كم غريبة هذه الدنيا، إنَّ بإمكان لحظة عامرة بالفرح، أن تنسيكَ عقدا من الألم والخيبات، تنسيك يتمكَ، وما كنت تحسبهُ أنَّه لن يتغيَّر، يفعلها، ويذهب بعيدا، وتتماثل للشفاء بعدها، لتستقبل إنسانا جديدا بعدما يموت الآخر الذي لطالما مقتَّه وكرهته، هكذا بعد أيّ ليلٍ سيأتي الصباح، أرجو أن يدوم هذا الصباح إلى الأبد.

فُتح البابُ، باب غرفتي، واستفقت من حديث نفسي موجها ببصري إلى فطيمة وهي تظهر من جديد، وأيَّما ظهورٍ،

كانت ترتدي ثوبا أسودَ قصيرا، إلى ما فوق الركبة قليلا، بقوامها الخياليّ، وكان شعرها يتهاوى على ظهرها بعد أن أطلقت له العنانَ، ظهرها نصف العاري، والذي رأيته حين قامت بحركة لولبية، سائلة رأيي في مظهرها هذا، وقد اكتحلت، ومرَّرت أحمر شفاه بلونٍ وردي لامع قليلا، ومكياجٍ خفيف يُظهر كم كانت لائقة بهِ، و قلادة

خفيفة تنزل من رقبتها إلى نحرها العاري، رقبتها الطويلة البيضاء التي لو بقيت مائة عام أحاول الكتابة عنها لعجزت اللغة عن ذلكَ، كانت ملاكا، ملاكا بعثه الإله لي هذه الليلة، ولابد أن أصلي لأشكره، ولن أستطيع أن أفيه حقَّه.

ما أعظمك أيَّها الإله وما أجملك أيَّتها الملاكُ.

-ألا تسمعني، ما رأيك بهذا المظهر "اللَّوك"، قالت ضاحكة، مبتهجة.

-تحسدك الأميرات عليه، قلتُ.

احمرَّ وجهها خجلا، كنت أود لو أخجلها العمر كلّه، ثمَّ أغضبها العمر كله، لأرى في كل مرَّة جمالا غير الذي رأيته بالمرَّة الأولى، كانت أنثى بامتياز، فراشة، وطفلا لازال بعد لم يغادر طفولته التي ما إن بدأ العثور عليها سُرقت منه، هكذا كنت أراها، مسكتها من يدها، ونزلت قليلا إلى الأسفل منحنيا على ركبتي.

-تقدمي سيّدتي، سفرة العشاء جاهزة.

كان تصرّفي ينبع طبعا من إحدى الروايات التي قرأت، أو أحد الأفلام التي شاهدت، ولم يكن عن خبرة ما، أو سابق تجربة ما،

فمثل هذه التجربة لم يكن لي فيها باع من قبل، إنَّها أصدق من أن تكون مجرد تجربة وفقط.

دخلنا المطبخ، وكم سعدتْ حين رأَتْ السّفرة معدَّة، لها، لحضورها

-شكرا لك، بشير.

وكانت أوَّل مرة تناديني فيها باسمي، وأحسست أني أُلاحَظ أخيرا، وبجد كنت أحس برغبة في البكاء حين تلفَّظت بهِ، لكني أخفيت ذلكَ بابتسامة.

-العفو فطيمة.

ضحكت بشدَّة، لنأكل، أنا جائعة جدا، ضحكت مرَّة أخرى، الليلة لازالت طويلة، وسنقول الكثير عن كلّ شيءٍ، وستوضح لي علاقتك مع ...

قطعتها كي لا أحزنها، كانت تحزن كثيرا، وتغضب لمجرد التفكير به

حسنٌ، لنأكل ثمَّ نحكي كلّ شيءٍ.

أنهينا العشاء، وأصرَّت أن تقومَ بغسل الأطباق رغم منعي الشديد لها، وكان هاتفها يرنّ بين الفينة والأخرى.

-ألو، بخير شكرا، نعم .... نعم ...أوك

هذا فقط ما كانت تقوله، وكنت أود الاطمئنانَ، فأخبرتني أنَّ العجوز التي طالما وصفتُها بالبشعة، واسمها كما نادتها ماما العمريَّة، تسأل عنها، وهي الوحيد الذي يعرف مكانها الآن، وهي تحاول إخبارها بأي جديد قد يحدث، فلربَّما عاد ذلك الوغد، على غفلة، وحينها ستسقط السماء على الأرض كما قالت.

-بماذا تقربك العمرية، هل هي أمك الحقيقية، إذ لا شبه بينكما تماما؟

-العمريَّة هي من اعتنى بي منذ كنت صغيرةً، وكنتُ حينها قد اختطفت وفي سن مبكر، حين كنت رضيعة، خطفت من مهدي من العاصمة، من حضن والدتي من المطار، وكانا سائحان روسيَّانِ يهمان بالمغادرة إلى بلادهما بعد رحلة سياحيَّة هنا لا أدري كم لبثا تحديدا، ولم يعثرا عليَّ أبدا، كما لم أعثر عليهما، وكل ما بقي من ذكراهما صورة لأمي كانت بمهدي، داخل حقيبة يدها التي كانت

بها، وكما ترى فإنَّها قديمةٌ وكُتب خلفها أولقا، ولابد من أنه كان اسمها، الأمر الذي لفت انتباه العجوز العمريَّة ومن يومها وهي تطلق عليَّ هذا الاسم، لكن بالأوراق الرسمية التي زوروها، اسمي فطيمة ولقبي مغناوي، على لقب ماما العمريَّة، هذه العجوز هي من حمتني على عكس ما فعلت مع بنات كثيرات مختطفات من هنا وهناكَ، ولم تترك أيادي السوء تمتد إليَّ أبدا.

-لكنَّ يد الوغد –تعلمين عمَّن اتحدَّث–تطالك وتنكد عليك عيشك، والآن عيْشي كذلكَ.

-لماما العمرية دَينٌ كبير عند الذي أسميته وغدا وإن كنت أصرّ على تسميته ابن العاهرة، رغم أني لا أعرف له أما، لابد أنَّك تعرفها.

حدثتها عن علاقاتي معه بصغري، وكيف كنا مقرَّبين جدا، وأفهمتها أنه كان لسكين واحدة أن تذبحنا، لكنَّ الزَّمن كان له قرارات أخرى وتدخلات أخرى، وافترق أحدنا عن الآخر، وشكَّلته الحياة على القالب الذي أرادته، حتى وحين أردت البحث عنك، تقاطعت أقدارنا ويا لها من تقاطعات مقززة، تمنيت لو أنَّنا التقينا في ظروف أخرى.

-أنا أيضا، قالت.

-إذا أكملي.

كانت تتكلَّم وعيونها تسبح بحزن، وأحيانا تبتسم إذ تحاول إخفاءه عني، لكنَّها واصلت سرد حكايتها، وواصلتُ الإنصات إليها، أدخل أرضها بكل تفاصيلها، أدخلها، أحزن لحزنها، وأبتسم لابتساماتها وكنت أُخفي مثلها حزني عليَّ وعليها، وعلى هذه الحياة التي لم تكن في يوم ما عادلة، إنَّه مخطئ من يظن عكس ذلك، إنها ليس عادلة أبدا.

-لن أنكر أني تربيت في إحدى مواخير بلعباس، بين السكّيرين والمقرفين، والأوغاد والشواذّ، لكنَّ ماما العمريَّة لم تكن يوما مقصّرة في قطع أي يد تحاول إيذائي، أو لمسي، ولذلكَ أذكر لها الجميلَ، وأحبها كما لو كانت فعلا أمّي، كانت قوَّادة وتحتَ يدها الكثيرات ممَّن ربتهنَّ، وعلَّمتهنَّ الدعارة، وباعت واشترت فيهنَّ حتى وهنَ جسدها الآن، كانت قويَّة جدا، لذلك استطاعت أن تحميني، والآن هي أضعف من أن تحمي نفسها، ولذلك تقف عاجزة خاصَّة أمام الزعيم، تبا له كم أبغضه.

-كيف يعقل أن تحبي امرأة كهذه، أليست مجرمةَ داعرة؟

-في الحقيقة لا يهمّني من تكون، ما يهمّني أكثر هو حمايتها لي، وحبها البالغ، كانت منحة السماء الوحيدة، ولولاها لكنت الآن ربما شخصا آخر، وإن كنت شخصا سيئا جدا أعرف هذا، ألوم الله كثيرا، كما أنّي انقطعت عن الإيمان به لفترة، هل تعلم أنَّ العجوز العمريَّة هي وحدها من كانت تردّ إيماني به، تدعمه بوقوفها الدائم معي، وبجانبي؟

-أنت تضعُ مقابل سريركَ، صورة لامرأة تشبه أمي، أمي التي لم أرها إلاَّ بالصورة، من أين أتيت بها؟

-اشتريتها بالصبيحة التي خرجت فيها من عندك، كانت تشبه الصورة التي عندك بغرفتك، وقدَّرت أنَّها تشبهك، إنها "لأولقا تشيخوفا "، فنانة كان يحبها هتلر كثيرا، هل سمعت بها من قبل؟

-لا، قالت.

ورحت أحدثها عما أعرفه عنها، واستمتعت بذلك، وأعجبتها المقارنة التي أسقطتها بينها وبين تشيخوفا.

-إذا قد انطبق التاريخ على الواقع، أنا الفنَّانة، وهتلر تعرفه، إنَّه الوغد صديقك الذي يودّ إحراق العالم كله، ضحكَت بمرارة.

-التاريخ لا يعيد نفسه أبدا، لكننا نحن الذين نود منه أن يفعلها، إذ لا نتعلم من الماضي.

-وما الماضي الذي يجب أن أتعلَّم منهُ برأيك، هل ماضيَّ بالمواخير، وبيوت الدَّعارة، وأوكار الجريمة، هو ماضي أستفيد منه؟، ثمَّ سجن هذا الوغد يمنعني من كل شيءٍ، إنَّه يحرس حتى أنفاسي التي تخرج من رئتيّ ، وأحيانا أودّ إيقافها، ولقد حاولت كم من مرَّة أن أوقف هذا الرّعب، سيقتلني لو علم أنّي هنا الآن، سيقتلنا معا، أنت لا تعرفه ولو كانت لك معه طفولة، أنا من يعرفه جيّدا، سيبيدنا كلينا، إنه هتلر، بل أشد شرا وفتكا ولست سوى دميته المطيعة.

-لماذا لا تذهبين إلى الشرطة؟

-ضحكتْ بشدَّة، وتواصل ضحكها، إنَّ ذلك غير نافع، ولو فعلت ستذهب ماما العمرية إلى السجن كذلك بغض النظر أنَّهم لن يفعلوا له شيئا لأنَّهم متواطئون هؤلاء الأوغاد معه بكل شيء،

رؤساؤهم، هل تعلم أنَّه الآن معهم بالعاصمة، ولا أدري أي شحنة مخدرات قادمة يتَّفقون عليها وعن أرباحها بعد أن يتم دخولها.

-وما الذي يجعلك تخافين منه على العمريَّة؟

-سيدخلها السجن، وهذا يحزنني كثيرا، لقد كانت شريكته بالكثير من العمليات التي قام بها، والبنات الصغيرات اللائي خطفهنَّ تسترت على ذلك، ورغم ندمها الكبير، فإنها عاجزة عن الإصلاح، أو فتح صفحة جديدة، إنها غارقة معه حتى الرّكب، أحيانا لا يمكننا إصلاح شيء قد انكسر، انكسر والسلام، ولا مجال لأي فكرة بالإصلاح أو حتى الترميم، لأنَّ ذلك يصبح جنونا، ثمَّ ماما العمريّة يتيمة، ولم تعرف أبواها أبدا ولم تفتح عينيها إلاَّ على واقع مماثل، الحياة ظالمة جدا، لو تعلم يا بشير.

ها قد نطقت باسمي مرة أخرى، تنهَّدتُ تنهيدة عميقة، من أجل ما قالته لي، ومن أجل الواقع، واسمي الذي كان وقعه بصوتها على روحي ليس هيّنا أبدا، إني أتأسف، أتأسف كثيرا فطيمة لما تقولينه كله.

حدَّثتها عن حياتي أيضا، وكانت تبكي باستمرار، ثمَّ تحدَّثت عن الكتب التي رأيتها بغرفتها، حدثتني كيف تهرب من واقعها الأليم كل ليلة بكتاب، وحين تصطدم به كانت تلجأ لكتاب آخر، الأمر الذي تطور معها بالمستقبل وصارت تكتب، أو تحاول القضاء على فراغها، وذبول روحها بالكتابة.

الكتابة رقص على خراب أرواحنا وهذا العالم، قالت.

-ألسنا نكتب لنحاول أن ننسى قليلا، أو نرتاح، ألا نقرأ بالأصل من أجل هذا –قلت –

بالعكس، نحن نقرأ لنهرب، لكننا سنتذكَّر بالنهاية، لنهرب مجددا، إنها لعبة طوم الذي لم يمسك بجيري كلَّ حياته، هكذا نحن لا نمسك بلحظة السَّعادة التي تأتينا ونحنُ نقرأ إلاَّ وتهرب من أيدينا حين ننهي ما بدأنا قراءته، ونكرس حبَّنا للحزن في لا وعينا في كتابته، نحن لا نتخلَّص منه، لكنَّه في الحقيقة هو من يتخلَّص منا.

كانت ذكيَّة في الحقيقة، تسكتني إجاباتها كلما حاولت الدخول معها بنقاش ما حول أيّ موضوعٍ، وكنا نجلس على سريري، نتقاسم الماضي والحاضر والهواجس، نتقاسم التَّعب الذي أوصلنا

إلى ما أوصلنا إليه، ونحن نسرق من العالم القبيح، الشَّرس، لحظة، نظن أنَّها ستدوم إلى الأبد ...

-في البداية، ظننت أنَّكَ تريد جسدي، كما يفعل الجميعُ، قالت.

كانت تتَّكئ على يدها اليسرى، كتمثال إيطالي من العصور القديمة، ينحني شعرها إلى الأسفل كما تفعل القلادة على نحرها القاتل بامتياز، وظهر نهدها الصغير المكوَّر، كانت قد وضعت رجلا فوق رجل، وتعرت رجلاها إذ صعد الثَّوب إلى الأعلى قليلا، وكنت أنظر إليها، لرقتها، شفافيتها، أنظر إلى الملاك الذي منَحَتنيه السَّماء هذه الليلة، وإلى اللَّحظة التي لم أكن أتخيَّلها حتَّى في أحلامي تتجلَّى أمامي وأتأمَّل.

-لا قلت مبتسما.

-لماذا، ألا يغريك جسدي؟

لم أقل شيئا.

حاولت أن تقترب مني، وجهها قرّبته من وجهي حتَّى وجدتُ أنفاسها، لماذا لا يغريك جسدي، ماذا تريد مني إذا؟

إنَّها تفهم كل شيء، لكنَّها تمكر، هنَّ ماكرات أحيانا.

-أريد روحك، قلبكِ، لقد صرت مؤمنا في النّهاية، لمجرد أنَّك اقتربتِ منّي صبيحتها.

ضحكتْ بمكر.

-ماذا فعلت بكَ أيها الراهب الحديث إذا، قالت.

-الكثير أيتها القديسة، الكثير ......

اقتربت أكثر، ثمَّ صعدتِ فوقي، كلبؤة، وكان خجلها قد زال مني، كانت تبدو كأنَّها ثملة، رغم صحوها الشَّديد، وكنتُ لا أعلم من الأمر إلاَّ غيابي عن الوعي، لكني تأكدت أنَّها تريد أن تتخلَّص من حزنها، وكانت تفعل ذلكَ بقوَّة، مضينا إلى حتفنا، كلانا يبوح للآخر بصمت، ولم يُسمعه إلاَّ همهمات، وآهات، وتمادى كلانا في ذلكَ، ولم أكُ أصدق أن لحظة السعادة هذه ستدومُ، إذ لم أعتد على هذا طوال عمري، لكني تناسيت ذلك، احتراما للحظتي المعطاءة ببذخ، وزاد إيمان كلينا ، ورحنا نؤرّخ مجدنا المسلوب على جسَدَيْ بعض، ليبقى إلى الأبد لصيق الرّوح لا يفارقها، كنا قد تركنا علامات لن تزول لبعض العمر المسلوب...

بلغت الساعة الرابعة صباحا تقريبا، لم ننم، وكان أحدنا يحتضن الآخر كما لو كان لن يفعلها مرة أخرى، كنا معلّقَيْن بصمتنا، تقول عيوننا كل شيء، ثمَّ نهضت فطيمة فجأة، وأخذت حماما، لم تقل شيئا قبل أن تفعل ذلكَ، ولم أفعل أيضا، كنَّا ننظر إلى بعض، والصمت ينبش بحاضرنا، يثرثر في سكاتنا ويخلع عنَّا السعادة فجأة.

- ستغادرينَ؟

-نعم اتَّصلتُ بسائق السيَّارة سيعود ليأخذني بعد حينٍ.

-أرافقك إذا، لابد من ذلكَ.

-ابق مكانكَ، أرجوكَ، لا أريده أن يكون وداعا أبدا، فنحن سنلتقي غدا، بالوقت نفسه، مادام غياب الزعيم مستمرا، وسأتصل بكَ لنؤكد الموعد، رقمي عندكَ الآن، صرت تعرفه.

نهضتُ من مكاني، اقتربت منها، ضممتها إليَّ، كنت أحس إحساسا غريباً وكأنَّه آخر عهدي بها، تجاهلت حدسي البائس، قبَّلتها على جبهتها، وأمسكت يدها.

-عديني أن تحافظي على نفسك.

-أعدك.

رنَّ الهاتف.

-إنَّه السَّائق عليَّ أن أنزل.

سدلت غطاء وجهها، ثمَّ خرجت وقبل أن تمضي رمق أحدنا الآخر بنظرةٍ عميقة، فيها من الحزن ما فيها، وقد أحسست بهِ، ترقبتها من النافذة حتى ركبتْ السيارة، أخبرتها بأن تتَّصل بي حين تصل إلى السّويقة، وفعلت كما اتفقنا، بعثت برسالة نصيَّة مفادها أنَّها وصلت، وعدت إلى مكاني، تمددت على السرير، أحتضن غيابها، لحظة أخرى تركتها معي، ومرة أخرى رحت أرقب الصورة على الإطار، وغفوت على رائحتها بشراشف النوم.

حينَ ذهبتُ إلى العمل بمؤسسة بيع الأدوية التي أعمل بها، فبعد أن بقيت لمدة بدون عمل، نجحت في إحدى المقابلات بهذه الشركة التي أعمل بها الآن، كنت مزهوا، فرحا، مغتبطا، بليلتي البارحة، وكانت الفرحة تبدو من نظراتي، حتَّى أن بعض زملائي اكتشف ذلكَ، فقليلا هي لحظات ابتهاجي، وعادة ما ألج المكتب، أدخل بعملي، وأخرج مساء دون أن يُسمع لي صوتٌ، فأنا قليل الكلام، لكن يومها كنت أتحدث مع الجميع، وألقي السلام على الجميع، كان

عيدا بالنسبة لي وأيّ عيد، إنَّه عيد حياتي الذي لم أكن أضعه بالحسبانِ.

فطيمة هي من حوَّلت حياتي إلى هذه الجنَّة التي تبادرني كلما ذكرت اسمها، وكلما تخيلت ليل شعرها الطويل ينسدل على لحظتي، يكثفها، ويحيلها كتلا من الفرح المبعثر في زوايا وحدتي التي-صارت أجمل من كل شيء، إذ تكون فيها طبعا.

أمضيت اليوم كاملا في انتظار قدوم المساء، أقصد قدومها، وحين خرجت من العملِ، ودخلت المنزل، حضرته ورتّبته كالعادة، وفي انتظار قدومها لليوم جهّزت مائدة العشاء بما يليق بحضورها وبهجتي، رنَّ الهاتف، إنَّه رقمها.

-أهلا حبيبتي.

-أهلا بالغالي، كيف كان يومك؟

-لذيذا بك.

ضحكت ضحكة خجولة.

-وأنتِ كيف كان يومكِ.

-مليئا بك.

نلتقي مساء.

-لهذا اتصلت، كالبارحة تماما سيكون ترتيب لقائنا، اتفقنا.

-حسن، قبلاتي.

-قبلاتي.

بقيت على الشرفة، أنتظر قدومها، قد حان الوقتُ، حين وصلتْ لسوق الفيروندو اتصلت بي، كما فعلت البارحة تماماً، نزلت بلباسها الأفغاني الذي كانت به البارحة، والهاتف يلتصق بأذنها، دخلت العمارة، صعدت حتَّى وصلت للطابق الرَّابع، كان الباب مفتوحا قليلا، وحين هممت بفتحه لاستقبالها، كان رجل ضخم يغطي وجهه بقناع أسود وراءها، لم تنتبه له، ربما كان مختبئا بإحدى زوايا العمارة المظلمة ليلا، فلم تكن هناك إنارة، على إنارة منزلي رأيته، حين صرختُ كانَ قد أمسكَ بها من الخلف، ووضع سكينة على رقبتها.

-فطيمة.... صرختُ، وفعلتْ.

- صرخ المقنَّع، بينما فُتح باب جيراني المقابل لشقتي، كان أحد الجيران قد سمع الصراخ.

التفت إليه المقنَّع.

-أغلقِ الباب، عد إلى منزلكَ.

فعل كما طلب منه، أخرج هاتفا من جيبه، وبينا كنت أستجديه أن يقتلني بدلا عنها، كنت أتوسَّل إليه أن يتركها، وكانت صامتة، لا أرى إلَّا عينيها ترتجفان، كانتا كأنهما تحاولان الاستجداء بي، لكني عجزت عن فعل أي شيء.

-خذ، الاتصال لك.

-ألو .... يا صديق الطفولة، لولا أنَّك كذلك لكنت أنتَ الذي بين يدي رَجُلي الآن، شفع لك هذا، وعادة لا يشفع أحد لأحد عندي، أو ذكرى ما لشخص أريد التخلص منهُ، إياك أن تطمع في ما يد الزَّعيم مرَّة أخرى، هل تدرك مع من لعبت لعبتك تلكَ.

-أرجوك يا فوَّاز، لا تؤذها، أنا المذنب، إن أردت أن تفعل شيئا سيّئا، افعله معي واتركها وشأنها.

كان قد قطع الاتصال قبل أن يسمع توسلي.

-أعد الهاتف، قال المقنَّع.

كنت أفكر بهذا الصَّوت، صوت الرجل المقنع أين سمعته من قبل؟

أعدته، توسَّلت إليه ألاَّ يفعل شيئا، رجوته، بالله، بوالديه، بالأعزَّة عليه، ثمَّ فجأة تذكرت الصوت، إنَّه صوت إلياس.

أنت إلياس، عرفتك، أتركها ولك ما تريد، أرجوك، أخرج مسدسا للصعق الكهربائي رماني به فقدت وعيي، وسقطت أرضا، وكنتُ أسمع فطيمة تنادي باسمي كأنها من عالم آخر تفعل ذلك.

بشير .... بشير .... بشير

استيقظت، كان الجيران يحيطون بي، خائفين، غير مدركين لما حدث، لَّما فتحت عينيَّ وجدتني على سرير ليس سريري، وغرفة ليست غرفتي، كانت شقة الجيران الذين يقابلونني، يبتسمون لأني استيقظت، وكان رجال الشرطة قد وصلوا توا، لابد أنَّ الجيران قد اتصلوا بهم، أخبرتهم بما حدث، لكنَّهم لم يكتفوا فقد أخذوني إلى مركزهم وطال الاستجواب الليل كله، وفي الصباح عدت إليهم أيضا، أتلمس أيَّ جديد عن فطيمة، لابدَّ أنَّها اختُطفت، علمت أنَّ الشرطة قد أتت إلى السويقة أيضا، وتمَّ إلقاء القبض على بعض النساء هناك، ثمَّ أطلقوا سراحهنَّ معهنَّ العجوز التي ظلَّت تبكي عند الباب منذ سمعت بخبر اختطاف فطيمة، ابنتها.

كنت مفجوعا، خائفا، ذهبت إلى الزلاَّيقة لأبحث عن الزعيم، لكن يبدو أنه غائب عن قسنطينة، إلاَّ أنَّ عيونه التي لا أعرفها بالتأكيد حاضرة، منها الكلب إلياس، وسينقلون له خبر قدومي، لابد من فعل شيء، الشرطة لم تعثر عليها، بعد مضيّ أسبوع كامل وأنا في خوفي اللاَّمتناهي عن ما يمكن أن يصيبها، توقفت عن تناول أدويتي، وصرت في حال يرثى لها، كنت كالمجنون، وبدأت أفقد

توازن عقلي، وبدأت نوايا الانتحار تعود مجددا، ومجددا غرقت في وحل من العذابات التي لا يمكن النجاة منها إلَّا بعودة فطيمة روحي سليمة من المكان المتواجدة به الآن، أخبرت الشرطة بكل شيء حدث، عن الزعيم، عن صوت إلياس الذي كنت متأكدا من أنه من اختطفها وأنه هو الرجل المقنع، لكنَّ تجاهلا ما أحسست به من قبلهم.

أسبوع وأنا أذهب للعمل، أجلس إلى المكتب ولا أفعل شيئا، إلا التفكير بها، وبما يمكن أن تكون عليه حالتها الآن، أسبوع بدون أدوية، ولا عقل، أسبوع من الغضب، والخوف، كنت أتمنى سلامتها فقط، حتى إذا كنا بعيديْن عن بعضنا، لا أريد شيئا، ولا أريد الاقتراب منها، فقط سلامتها، لم أنم، ولم أذق شيئا منذ جرى الحادث.

وفي اليوم الثاني بعد الأسبوعِ الذي حدث فيه الاختطاف، وتصويبي بالمسدس الكهربائيّ، وبعد أن دخلت المكتب قال أحد الذين لا أطيقهم.

-هل سمعت بالفتاة التي وجدوها مقتولةً في الوادي، أقصد وادي الرمال أسفل الجسر؟

انقبض قلبي، وارتجَّ عالمي، واختلَّ فكري.

-هل ذكروا اسمها، قلت ذلكَ بعد أن أمسكته من عنقه.

-ما بكَ بشير، اتركني، وأنا من أين لي أن أعرف قد قرأت الخبر، بالجريدة.

-أيّ جريدةٍ، قلت بينما لازلت بعد لم أتركهُ.

-إنَّها على الطاولة.

تركته وأخذتها، أحاول أن أجد الخبر، وجدته.

كان خبرا صغيرا بإحدى زوايا الجريدة.

"أخرج عناصر الحماية المدنية فتاة تبلغ من العمرِ 25 سنة، مضرجة بدمائها بعد أن سقطت من جسر سيدي مسيد، ويبدو أنَّها كانت هناكَ منذ ما يقارب أسبوعا، وقد اكتشف وجودها أحد المواطنين وقام بإبلاغ السلطات المحليَّة التي سارعت إلى عين المكان، وهي الآن متواجدة بالمستشفى الجامعي لقسنطينة "

أمسكتُ الجريدة، وأنا أنظر إلى صاحبها، وفي الحقيقة لم أكن أنظر إليه، لكني في هواجسي، كنت أسمع صرختها وهي تنادي.

بشير.... بشير

لم يكن بوسعي فعل شيءٍ، إذ سقطت على الأرض مغمى عليَّ من أثر المسدَّس الكهربائي الذي رُميت بهِ، وفي تلك اللحظة رنَّ هاتفي، كانت العجوز هي المتصل، وكانت تفعل ذلك على مدار الأسبوع، كنت لازلت أرجو أن لا يكون الخبر صحيحا أو أن تكون الفتاة التي كُتب عنها بالجريدة فتاة أخرى وليست فطيمة حبيبتي.

-هل سمعت بما حصل، قالت وهي ترجف ويبدو أنَّ البكاء منعها من الكلام.

-لا تخبريني أرجوك، هل هي التي...؟

-نعم، هي، أكَّدت العجوز ذلكَ بعد أن أخبرتني أنها رأت جثتها بالمشرحة بالمستشفى الجامعي، لابد أنَّها ألقت نفسها من هناكَ.

-لم تفعل، إلياس من فعل، قلت بشراسة وحسرة كبيرة.

أغلقت الهاتف بوجهها، دون أن أقول شيئا، وبينا كنت أهمّ بالمغادرة سمعت الزميل الغليظ معلقا.

-يبدو أنَّها قحبة ما، حملت فجأة من أحد الذين تخرج معهم، أو أنَّها مريضة نفسيا .... وضحك.

لا أعلم فعلا كيف انقضضت عليه، حاول المقاومة، لكن غضبي كان أكبر، وعماي كان أعظم من أن يفهم ما أصابه بعد ما قال ما قاله، أدخلت فاتحة الرسائل بقلبه، وأرديته قتيلا، بعدها خرجت، كنت غارقا بشخص آخر، لم أكنه، بل كنته، والآن برز إلى العلن ....

لبست ثيابي، وحينَ هممت بالخروج من المنزل، كان عناصر الشرطة بانتظاري، مددت يدي، وضعوا لي القيود، وساروا بي، حتَّى بلغتُ السيارة، وقبل أن يُدخلوني بها، رأيت الدكتور عزمي، يخفف عني، وهمس بأذني ألاَّ أخاف، فعنده ملف طبي، يثبت عدم أهليتي العقليَّة

ركبت سيَّارة الشرطة، وقد خرج صوتها المدوي وهي تعبر بلوزداد، تتجه صوب مركز الأمن الرئيسي، مررنا بجانب مسجد الاستقلال الذي صليت فيه مذ عرفت فطيمة، تذكرت الله، واختلط داخلي الإيمان بالسخط، لمته مرَّة أخرى....

رأيت الزعيم، وإلياس على باب المركز، يبتسمان.

أحسست بمؤامرة الكون كلّه عليَّ.

بدأت حبَّات الثلج بالانهمار على قسنطينة.

ايييه يا" قسمطينة "

لا يمكنني أنا الرجل المنكسر، أنا الذي لا سلطة لي أن أسمي شوارع المدينة، وأزقَّتها باسم فطيمة حبيبتي، لذلك، سميت بها هذا

الجرح.... عفوا أقصد هذا النَّص الذي لا يمكنه أن ينتهي هنا فقط، إنَّها قصَّة أكبر من اللغة ومن كل شيء ....